الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

République Algerienne Démocratique et Populaire

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

Ministère de l'enseignement supérieur et de la recherche scientifique

جامعة 08 ماي 1945 قالمة
كلية الأدب واللغات
قسم اللغة والأدب العربي

Université 08 mai 1945 Guelma
Faculté des lettres et des langues
Département lettre de et langue

مذكرة مقدمة لاستكمال متطلبات نيل شهادة الماستر

(تخصص: أدب جزائري)

شعرية المكان في رواية "أنا وحاييم"
للحبيب السايح

من إعداد الطالبة:

- حدة قواسمية

تحت إشراف:

أ.د وردة معلم

تاريخ المناقشة:

2021/07/12 من الساعة 08 إلى 09 صباحا

أمام اللجنة المشكلة من:

الاسم واللقب	الرتبة	مؤسسة الانتماء	الصفة
ليلى زغدودي	أستاذة مساعدة (أ)	جامعة 08 ماي 1945 قالمة	رئيسا
وردة معلم	أستاذ التعليم العالي	جامعة 08 ماي 1945 قالمة	مشرفا ومقررا
عبد الغاني خشة	أستاذة محاضر (أ)	جامعة 08 ماي 1945 قالمة	ممتحنا

الموسم الجامعي: 2020-2021

بسم الله الرحمن الرحیم

شكر:

أشكر الله سبحانه وتعالى على كل شيء

أتوجه بالشكر الخالص لأستاذتي المشرفة الدكتورة "وردة معلم"

التي تكرمت عليّ بكل ما يحتاجه بحثي من كتب

حملتها إليّ بكل تواضع

وإني لأكبر فيها تواضعها

أستاذتي بارك الله فيك

كما أتقدم بجزيل الشكر وأطيبه لأستاذاتي من لجنة المناقشة

لكُنَّ مني أسمى عبارات الاحترام والتقدير

مقدمة:

استطاعت الرواية في القرن التاسع عشر أن تثبت وجودها افي الساحة الأدبية والثقافية العالمية، وأن تتفوق على غيرها من الأنواع الأدبية، وذلك لما تتوفر عليه من مرونة وما تميزه من قدرة على معايشة مقتضيات الحياة الإنسانية، وكذا معالجة الواقع بمجرياته المتباينة، كما تتسم أيضا بنوع من الغامرة المتواصلة نحو اسهامها الكبير في إنتاج المعرفة وتنوير الفكر الإنساني عامة، فقد تدعم منجزها السردي بتقنيات متنوعة، وآليات عديدة تطرقت من خلاله إلى موضوعات جديدة جديرة بالطرح مواكبة التغيرات الحياتية بمناحيها المختلفة وذلك بفضل نضج لوعي وتبلور الفكر التحرري لدى الفرد خاصة والجماعة عامة.

كما تفرّت الرواية دون غيرها من القوالب الفنية الأخرى يتعدد اتجاهاتها، وتمايز أشكالها معبّرة بذلك عن آلام وآمال الإنسان أينما وجد كما كان لها الفضل في احتوائه وذلك من خلال التفافها حول الضمير الجمعي والانفتاح على الآخر وتنوع الحوارات محققة بذلك التعددية الفنية أو ما يعرف بتداخل الأجناس الأدبية وهو الشيء الذي جعل من الرواية ذاتها سيدة المقام في الأنماط التعبيرية الحديثة إذ فتحت المجال للمبدع الروائي، وسمحت له بصياغة تجاربه وأفكاره المختلفة والتعبير عنها بكثير من الجرأة والتمرّد...

فتعددت وجهات النظر، وتباينت التوجهات والآراء الفكرية، وبالتالي تعددت الأشكال التعبيرية، وتحطمت الحدود بين الأنواع الأدبية فاشتملت الرواية الواحدة على الشعر والمسرحية والخطابة وغيرها من الأنماط الإبداعية، كل هذا خلق ابعادا جماليا ودلالية أسهمت في النهوض بالمعرفة الإنسانية وإثرائها.

يقودنا الحديث عن الرواية بشكل عام إلى الحديث دون شك عن الرواية الجزائرية التي استطاعت هي الأخرى أن تثبت وجودها جميع الأصعدة وأن تتربع على عرش الكتابات الإبداعية الإنسانية، ووصلت إلى العالمية بفضل نخبة من الروائيين الجزائريين، ومن هؤلاء الروائيين الذين برزت كتاباتهم على المستوى العربي والعالمي، الروائي (الحبيب السائح) بعمله الإبداعي المتمثل في رواية (أنا وحاييم) والتي تميزت بجملة من الأنساق المضمرة، والخطابات المتعددة زيادة عن تضمنها للأفكار الإيديولوجية والسياسية والاجتماعية وكذا القيم الإنسانية والوطنية ولعل أول سؤال يثيره هذا العنوان الذي أتى في شكل ثنائي (أنا وحاييم) في ذهن المتلقي هو أين؟ ومتى؟ ومنه الوقوف على تعدد الإطار المكاني والزماني للرّواية وكذا الأحداث والمشاركة الفعلية في مجرياتها.

ولأن المكان هو أحد أبرز العناصر الفنية في الرواية، وهو أيضا البنية الأساسية التي لا يمكن الاستغناء عنها في دراسة أي عمل روائي، فإن كل هذا جعل عنصر ومكون بارز في صنع الرواية، كما جعل المبدعين يتطرقون له بكثير من الاهتمام والابداع في التعاطي معه كما تناوله النقاد أيضا في العديد من الأبحاث والدراسات النقدية.

نظرا للدور الذي يقوم به في بناء دعائم الرواية، والحفاظ على تماسك عناصرها، وهو ما يجعلنا نُقِرُّ أن لا وجود لرواية من دون مكان يساهم في بناء أحداثها وتسلسلها وإعطائها جمالية خاصة، أو بتعبير آخر، لا رواية دون شعرية المكان، أي أن لكل مكان روائي دلالاته المختلفة، وبالتالي تعدد رمزيته وشعريته من رواية إلى أخرى.

كما أن أي رواية لا يكتمل تشكيلها إلا بتوفر جميع عناصرها الفنية والتي من بينها المكان الذي يكسبها قيمتها الفنية والجمالية، كما يكتسب هو الآخر شعريته داخل العمل الروائي بتفاعله مع العناصر السردية الأخرى.

وبالحديث عن عنصر المكان دائما، وتَرَصُّد شعريته من خلال رواية "أنا وحاييم" للحبيب السائح، وهي الرواية محل دراستنا فإننا نجدها قد اشتملت على التوظيف المكثف لعنصر المكان فساهم ذلك في خلق مساحات جمالية تنقل لنا قيمة فنية وجمالية مميزة في هذه الرواية ذات النسيج النصي المتماسك الذي يجعل المتلقي يُحلّق في الفضاء السردي هذا بطلاقة وحرية لاكتشاف شعرية المكان التي أضفت على الرواية أبعادا ودلالات أخرى.

وعليه فقد اخترت هذه الرواية موضوعا لبحثي الموسوم بـ (شعرية المكان في رواية أنا وحاييم)، ولقد حفزتني الأهمية البالغة للمكان الرّوائي على طَرْقِ موضوع شعرية المكان في رواية (أنا وحاييم) للحبيب السَّائح.

ومن هنا ينطلق البحث من إثارة إشكالية شعرية المكان في رواية (أنا وحاييم) للإجابة على الأسئلة التالية:

كيف وظف الكاتب الروائي (الحبيب السائح) المكان في الرواية توظيفا مختلفا وكيف جسد الثنائية في شعرية المكان المفتوح والمكان المغلق؟.

وفيم تتمثل علاقة شعرية المكان بعناصر السرد الروائي الأخرى؟

ماهي أبعاد المكان ودلالاته الشعرية في الرواية؟.

ومن الأسباب التي دفعتني لاختيار موضوع شعرية المكان في الرواية رغبتي في دراسة الأدب الجزائري المعاصر، بل انه لا بد من دراسته والوقوف على جمالياته المختلفة، بالإضافة إلى إعجابي بلغة الرواية في الكشف والتوظيف العامي، أيضا في بعض المقتطفات قصد تقريب الفهم وتبسيط الرؤية للقارئ في هذه التجربة السردية المتميزة، فضلا عن المكانة الهامة والحيوية التي حظيت بها شعرية المكان، والتنويع الذي اعتمده الروائي في توظيفه للأمكنة المختلفة، وهو بهذا تمكن من تجسيد صورة ذاتية وعامة للمجتمع الجزائري في فترة تاريخية حساسة جدا.

ويسعى هذا البحث أيضا إلى تحقيق جملة من الأهداف، تتمثل في إخراج محتويات المكان الروحية والمادية ورصد أنواعه والكشف عن الجماليات التي يخلقها هذا العنصر الأساسي في بناء الرواية، وبالتالي إبراز وتحديد العلاقات الإجتماعية بين الأفراد والأمكنة التي يشغلها المتن الروائي، وأيضا توضيح المشاعر الإنسانية والعلاقات والرابط النفسية للمجموعات البشرية فيما بينها وبين شخصيات الرواية الأمكنة التي تشغلها.

وتؤدي كل هذه التفاعلات بين الشخصيات والأمكنة إلى خلق الشعرية، وإثارة الدهشة التي يستلذها المتلقي وتستفزه لمواصلة القراءة والتأويل للوقوف على الدلالات والجماليات التي ينتجها ويخلقها المكان والروائي.

وتكمن أهمية هذه الدراسة على سبيل الذكر في كونها بحث يغوص في شعرية المكان وقراءة الدلالات الجمالية المكثفة والمختلفة، وذلك من خلال هذه الرواية الجزائرية ذات التجربة الخاصة والرؤية الإيديولوجية، وكذا الاختلافات الاجتماعية التي أبدع الروائي في التعبير عنها في هذه الرواية، بحيث يمكن القول أنه استطاع أن يعزف جماليا على بحر الإيديولوجيا والوطن والسياسة والمجتمع والحب...

وارتأيت بذلك أن تأتي فصول الدراسة تصويرا جماليا لهذا التشكيل المكاني ورصدا لتجلياته الجمالية في هذا العالم الإبداعي المتميز، وقد جاء البحث مكونا من فصلين تطبيقيين سبقتها مقدمة وتلتهما خاتمة، بحيث تناولت في الفصل الأول شعرية المكان في الرواية، التي أنا بصدد دراستها بحيث تطرقت إلى علاقة الشعرية بالمكان من خلال أنواع شعرية المكان في الرواية من مكان مغلق ومفتوح، كما تعرضت كذلك إلى عنصر آخر تمثل في أبعاد المكان في الرواية ودلالاته الشعرية.

أما الفصل الثاني المعنون بعلاقات شعرية المكان بالعناصر الأخرى، فتحدثت فيه عن علاقة شعرية المكان بالعناصر السردية الأخرى المكون للمنجز الروائي، وقد تطرقت إلى علاقته بالزمان والشخصية وكذا علاقته بالحدث، وأنهيت بحثي هذا بخاتمة رصدت فيها ما توصلت إليه بعد القراءة والدراسة من نتائج مختلفة.

ولمقاربة صورة المكان والوقوف على شعريته وكشف دلالاته في هذه الرواية اعتمدت على المنهج الظاهراتي، فانطلقت من كشف علاقة الشعرية بالمكان، من خلال رصد أنواع الأمكنة وما تخلقه من شعرية وجمالية داخل الرواية، وكذا الحديث عن الأبعاد الدلالية وصورها الشعرية المتعددة بالإضافة إلى تمثيل تلك الأمكنة الجمالية التي وردت في الرواية وأثر علاقتها مع عناصر السرد الأخرى.

وقد استعنت ببعض المراجع، أذكر منها "بنية الشكل الروائي" (الفضاء، الزمن، الشخصية) لحسن بحراوي، شعرية الفضاء (المتخيل والهدية في الرواية العربية) لحسن نجمي، والكتاب المترجم جماليات المكان لغاستون باشلار، ويمكن الإشارة إلى بعض الصعوبات، منها اتساع الموضوع وتشعبه، بالإضافة إلى جدة المدونة فهي رواية بكر، ضف إلى ذلك طبيعة المنهج، وقلة المصادر الكافية حوله.

وختاما أتقدم بجزيل الشكر والامتنان لأستاذتي المشرفة الفاضلة الدكتورة " وردة معلم ".

أولا: علاقة الشعرية بالمكان:

1. أنواع شعرية المكان في الرواية:

تجمع رواية (أنا وحاييم) بين صورة المكان في تمظهراته المختلفة، وبين الأحداث المكونة لها، فجاءت لغتها غاية في انسيابها وسلاستها؛ إذ استطاع تجسيد التجربة الروائية المتفردة بفضل اللغة الشعرية، وثقافة الروائي المتنوعة، فقدم لنا بهذا وصفا للمكان من خلال عوالم ومستويات عدة، متعاطيا معه لا بكونه حيزا فضائيا أو إطارا تجري فيه أحداث الرواية وتتشابك فحسب، بل لكونه عنصرا مهما من العناصر السّردية التي لا يمكن الاستغناء عنها في مختلف أنواع السرد، بحيث جَعَله عنصرا مشاركا في مجريات الأحداث الروائية، وبالتالي علاقة التأثير والتأثر بينه وبين الأحداث والشخصيات، بالإضافة إلى الوظيفة الأساسية للمكان؛ إذ يعتبر حاملا للأفكار والقيم الأخلاقية والإنسانية والاجتماعية والثقافية.

ويكتسي العمل الروائي إذن أهمية من خلال تعدد المكنة الحبلى بحمولات دلالية ومضامين ذات انساق مفارقة، وبهذا تتنوع الرواية وتتميز بفضل الانزياحات اللغوية، وكذا التفاعلات المكانية فيتحول المكان من البعد الفيزيائي إلى البعد التخيلي، وهذا عن طريق التشخيص والتكثيف بالإضافة إلى تكييف الأحداث بما يتناسب وطبيعة المكان، سواء كان واقعيا أوو افتراضيا خياليا ،كما يعمد الروائي أيضا إلى تضييق الفضاء أو اختزاله حسب الحالة الشعورية التي تعتريه، كما نجده في مواقف أخرى يُوَسع المكان الروائي وينفث فيه مختلف الانفعالات والرؤى، ويشحنه بجمله من الأبعاد والدلالات الشعرية، ومن هذا المنظور وتشتمل الرواية على أماكن مفتوحة وأخرى مغلقة، ولكل منها ميزات وإيحاءات خاصة تترجم هذه الصورة إذن ظاهرة الخيال والشعور داخل المنجز السردي، وبهذا يأخذ المكان طبيعته وشكله من خلال مت هو متخيل ومن خلال الحالة الشعورية أيضا، فيترجم في هذه الصورة الشعرية أو تلك، حيث "إن المكان الذي ينجذب نحوه الخيال لا يمكن أن يبقى مكانا لا مباليا، ذا أبعاد هندسية وحسب، فهو مكان قد عاش فيه بشر ليس بشكل موضوعي فقط، بل بكل ما في الخيال من تحيز"[1].

ويختزل المكان المتخيل وجودنا الفيزيائي والنفسي، فتتعدد صوره وأنماطه، ورواية (أنا وحاييم) تبنت المكان كأيقونة أساسية في تكثيف الحالات النفسية والدلالات الترميزية التي يرمي إليها الحبيب السائح، إذ أعاد قراءة التاريخ من منظور حداثي فصاغه في قالب فني بديع، وبذلك تنوعت الأمكنة الطبيعية والخيالية وتوزعت بين

1 غاستون باشلار، جماليات المكان، ترجمة غالب هاسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط2، 1984، ص 31.

المكان المغلق والمكان المفتوح، ولكلٍ من هذه الأنواع شعريته الخاصة التي تطبعه بلمسة جمالية رمزية لهذا الفعل الروائي.

والمعلوم أن الأمكنة تختلف، وتتباين من حيث أهميتها وبيئتها وأشكالها، فتتسع وتضيق حسب الحالة الشعورية للشخصيات السردية، وفق هذا التمدد والتقلص فإنها "تخضع في تشكيلاتها أيضا إلى مقياس آخر مرتبط بالاتساع والضيف والانفتاح والانغلاق، فالمنزل ليس هو الميدان، والزنزانة ليست هي الغرفة لأن الزنزانة ليست مفتوحة دائما على العالم الخارجي بخلاف الغرفة، فهي دائما مفتوحة على المنزل، والمنزل على الشارع، وكل هذه الأشياء تقدم مادة أساسية"[1] ، فالأماكن تختلف داخل الرواية الواحدة، فهناك المكان المغلق والمكان المفتوح، ولكل واحد خصائص وأبعاد دلالية تساهم في اضفاء الجمالية على المتن الروائي ويشير حميد لحميداني بقوله ذلك ان الأماكن تخضع من خلال تشكيلاتها إلى مقياس مرتبط بالاتساع والضيق، والانفتاح والانغلاق وبما أن المكان الروائي يتشكل أولا من المادة اللغوية؛ أي أن الراوي يمتلك الحرية في صياغته كما يريد، لذلك ينتفي الشكل الهندسي أحيانا ويتجاوز القوانين الرياضية، ومن هذا المنطلق يشارك المتلقي في عملية التشكيل الهندسي لمختلف الأمكنة، ومنه فإن "الرواية تشبه الفنون التشكيلية في تشكيلها للمكان" [2] ، والمبدع الروائي يشكله في قوالب عديدة فيسقط عليه ما يختلج في نفسيته من حالات شعورية وانفعالات، وعلى هذا الأساس تتمايز الأمكنة في أنماط مختلفة وثنائية ضدية، ونذكر منها الأماكن المغلقة والأمان المفتوحة، وما لهذه الثنائية من دليل على المهارة التخيلية والتجربة الإنسانية والأكثر من ذلك القدرة على أنسنة الأماكن ومشاركة الأحداث فيما بينها، بالإضافة إلى إبداع فضاءات مكانية جديدة عن طريق ظاهراتية الخيال، وخلق صور شعرية متناغمة، ومن هذا المنطلق استطاع (الحبيب السائح) من خلال روايته "أنا وحاييم"، أن يجذب المتلقي من الوهلة الأولى محققا بذلك عنصر الدهشة، وخرْق أفق التوقع بفضل لغته الشعرية العذبة وقوة التخييل والتشخيص التي يعتمدها، فمن يقرأ الرواية منذ الصفحة الاولى يظن انه أمام رواية تاريخية، لكن سرعان ما يكسر الروائي الخطية الزمنية عن طريق التقنيات السردية، وهذا ما يزيد من جمالية الرواية بالإضافة إلى كيفية تعاطيه مع الأماكن، وتكييفها بما يتناسب والحالة النفسية، وكذا الدلالة المعبر عنها.

1 حميد لحميداني، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1991، ص 72.

2 سيزا قاسم، بناء الرواية، دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة، مصر، د ط، 1984، ص 14.

أ. شعرية المكان المغلق:

تكتسي الأماكن المغلقة خصوصية في نفس الكائن البشري عامة والشخصيات الروائية بصفة خاصة، وفق ما يوزعه فيها المبدع من مشاعر وطباع ... فتبرز علاقة التفاعل بين المكان المغلق بوصفه عنصرا فنيا وبين هذه الشخصية أو تلك، سواء حقق ذلك تنافرا أو تآلفا، والأماكن المغلقة تكون حبلى بالآمال والآلام والأفكار، كما تعتبر خزان للذكريات، وقد تخلق شعورا بالأمان والاطمئنان أو تثير في النفس الرهبة والتوجس، وهذا المكان المغلق تتحدد مساحته ومكوناته كالبيت والغرف وفيه يتم العيش والسكن لفترة زمنية قد تطول أو تقصر، وفيه تجتمع كل صور النفس وخلجاتها ومشاركة الأحداث والوقائع، وقد يعيش الإنسان فيه بإرادته أو مرغما وهنا يختلف الشعور بالألفة أو اللاألفة فالشارع يختلف عن البيت الذي يعطينا الأمان ويشعرنا بالألفة التي يتحدث عنها (غاستون باشلار) في منهجه الظاهراتي الذي يخوض في جماليات المكان حيث يستطيع الخيال الخلاق المبدع أن يتجاوز الوجود الانطولوجي (الشكل الهندسي للمكان إلى وجود خيالي جمالي بفضل علاقته بالإنسان وتبادل التأثر والتأثير ومنه تنتج كل صور الألفة والاطمئنان لهذا البيت مثلا دون غيره، لأن "المكان المسكون يتجاوز المكان الهندسي"[1].

ومن خلال الجمع بين الذاكرة والخيال فإننا نتمكن من انتاج أماكن مغايرة صوريا وشعوريا، أي بالإمكان انتاج العديد من الصور التشكيلية للمكان الواحد من خلال قوة التخييل بالإضافة إلى تصويره وتأطيره إذا كان البيت مثلا باعتباره مكانا مغلقا هو أول الأماكن التي يقطنها الإنسان في رحلته الحياتية، ومواجهة العالم بمتغيراته فإنه إذا هو الحيز الأليف المشحون بالكثير من القيم كما يقول (باشلار): "يُشْحَنُ البيت الذي ولدنا فيه بقيم الحلم التي تبقى بعد زوال البيت"[2]. فأول بيت سكناه مازال يحضر في ذاكرتنا وقد نراه اجمل مما كان عليه وهذا بفضل القوة الخلاقة للخيال والتي بواسطتها يتمايز هذا الوصف للمكان عن ذاك، والإنسان يتفاعل مع الحيز الذي يقطنه ويكثف الاحلام والذكريات حتى يحس كأن المكان يسكنه روحيا، وعليه فالأماكن المغلقة لها حميمية عن طريق أحلام اليقظة، ولنتحدث عن البيت بكونه مكانا مغلقا ففيه تجد الشخصيات كل سبل الحرية عادة وهذا لما يكتنفه من ألفة واطمئنان، كما يذهب إلى ذلك (غاستون باشلار) إذ يقول: "أن البيت هو واحد من أهم العوامل التي تدمج أفكار وذكريات وأحلام الإنسانية ومبدأ هذا الدمج وأساسه هما أحلام اليقظة، ويمنح

1 غاستون باشلار، جماليات المكان، مرجع سابق، ص 67.

2 مرجع نفسه، ص 45.

الماضي والحاضر والمستقبل البيت ديناميات مختلفة كثيرا ما تتداخل أو تتعارض، وفي أحيان تنشط بعضها بعضا، فبدون البيت يصبح الإنسان كائنا مفتتا"[1].

وُجِدَ هذا النوع من الأماكن إذا وغيرها عند بعض الروائيين –ومنهم (الحبيب السائح) الذي استطاع توظيف عنصر المكان في روايته "أنا وحاييم" توظيفا فنيا مكثف الدلالة، وهو ما لاساهم في تنويع الخطاب السردي، وجعله شهيّ التلقي من خلال الصّور الشّعرية المتنوعة التي صاغ فيها المكان، حيث تمكن من خلال تجلياته وصوره المختلفة أن نشاركه مراحل حياته وحياة حاييم، وكذا التكيف مع الأمكنة التي تبناها لسرد أحداث التجربة الروائية الخاصة به، وكذا استغلالها كمحتوى للأحداث التاريخية التي أجاد الخوض فيها إبداعيا بشكل حداثي وقراءة مثقفة للتاريخ.

وبهذا فرضت العديد من الأماكن المغلقة نفسها في رواية (الحبيب السائح)، فتواردت متنوعة مليئة بالمعاني والمعاناة...، جسدت وعي الروائي وكانت مسرحا للأحداث من خلال ارتباطها مع عناصر البناء السردي الأخرى، "فالمكان ليس عنصرا زائدا في الرواية، فهو يتخذ أشكالا ويتضمن معاني عديدة بل إنه قد يكون في بعض الأحيان، هو الهدف من وجود العمل كله" [2].

وَوُظِّف المكان في هذه الرواية توظيفا دلاليا، بحيث عبر من خلاله الكاتب عن تجربة سردية خاصة به وقراءة للتاريخ من زاوية نظر أخرى تنبع من وعي وتشبع ثقافي مرتكزا في ذلك على مرجعيات عديدة، فجعل من المكان آلية خطابية لتعرية بعض الحقائق وتوجيه المتلقي إلى تفعيل الوعي الجمعي لقراءة وتصحيح بعض المغالطات المتعلقة بالتاريخ خاصة، وكذا تجاوز جميع الأفكار النمطية.

وقد تجاوز عنصر المكان في هذه الرواية وظيفة كونه مجرد إطار للأحداث، بل اشتغل الروائي على توظيفه بشكل يجعل منه آلية خطابية تواصلية بما يحمله من حقائق وقيم وأفكار، ذلك "أن الأمكنة تتجاوز بعض المواقف وظيفتها الأساسية المتمثلة في كونها إطارا أو ديكورا، لتصبح عنصرا مهما من عناصر على هذا المحور أو ذاك من محاور الرواية". [3]

ويمكن أن نضيف في هذا السياق مما يؤكد على ضرورة فاعلية المكان في العمل السردي، حيث: "يجب أن يكون المكان عاملا وفعالا وبناءا في الرواية، وإلا أصبح كتلة شخصية لا تضيف للرواية إلا الترهل، ومن هنا

---

1 غاستون باشلار، مرجع سابق، ص 38.

2 حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن، الشخصية)، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط 1، 1990، ص 33.

3- إبراهيم صحراوي، تحليل الخطاب الأدبي لرواية المحبين لجرجي زيدان أنموذجا (دراسات تطبيقية)، دار الآفاق، الجزائر، ط 2، ص 209.

المكان يلعب في بعض الروايات الرشيقة دور البطولة وليس عنصر بطالة" [1]، وبذلك يصبح عنصر المكان وسيلة يعبر بها الروائي عن أفكاره وقناعاته وصراعات عصره، والروائي الحبيب السائح عرف كيف يصوغ هذه الرواية وفق تقنيات سردية متنوعة، مستغلا المكان بما يسمح له ببث آرائه وتطلعاته، فجاءت روايته قيمة إضافية على مستوى دلالة الخطاب، أو على مستوى البعد الجمالي.

ولعل هذا ما جعل المكان يكتسي أهمية بالغة في النص السردي الجزائري، والعربي عامة، ويذهب ياسين النصير بالحديث عن المكان إلى اعتباره "إحساسا بالمواطنة وإحساسا آخر بالزمن وبالمحلية، حتى لا تحسبه الكيان الذي لا يحدث شيء بدونه، فكان واقعا ورمزا تاريخيا قديما، وآخر معاصرا، شرائح وقطاعات، مدنا وقرى، حقيقة وأخرى مبنية من الخيال كيانا تتلمسه وتراه...". [2]

ويؤكد هذا القول فاعلية المكان في ارتباطه بالإنسان، وكذلك تجلياته المتعددة داخل النص الإبداعي، بحيث يشكله المؤلف في تمظهرات متباينة، تحوي منظوره الروائي وفق لغة خطابية ملائمة، ليصبح عنصر المكان بذلك ركنا أساسيا في الرواية ينبض حيوية وشعرية، "فلا يشكل الوعاء الروائي فحسب، بل يؤدي دوره في العمل الأدبي كأي ركن من أركان الرواية، ويخطئ من يفترض أنه يكون جامدا ومحايدا". [3]

وقد اعتنى المؤلف بتوظيف المكان الروائي توظيفا متنوعا، يحمل شحنة من الدلالات، وشكّله في قوالب مختلفة، فمكن المتلقي من الوقوف على المعاني التي يكتفها عنصر المكان في الرواية، ذلك لأن "الأماكن مهما صغرت ومهما كبرت، أو مهما اتسعت أو ضاقت، مهما قلت أو كثرت، تظل في الرواية الجيدة مجموعة من المفاتيح الصغيرة التي تساعد على فك جزء كبير من مغاليق النص". [4]

لقد جعل الكاتب المكان مادة جوهرية للكتابة، وبفضله استطاع تنظيم باقي عناصر السرد، فكون بذلك فضاءا سرديا، إذ أن الفضاء الحكائي –على حد تعبير أحمد مرشد-: "هو مجموع الأماكن الروائية التي تم بناؤها في النص الروائي، والتي يطلق عليها اسم فضاء الرواية" [5]، ويضيف في نفس السياق قائلا: "إنه تخصيب لسلسلة من الأماكن أسندت إليها مجموعة من المواصفات كي تتحول إلى فضاء" [6]، وذلك لتعددها واختلاف دلالاتها، فكونت بنية أساسية في معمار النص السردي، "ومن هنا تأتي أهمية المكان ليس كخلفية للأحداث فحسب، بل

[1] – شاكر النابلسي، جماليات المكان في الرواية العربية، ط 1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1994، ص 25.
[2]– ياسين النصير، المكان والرواية، دراسة في فن الرواية العراقية، الموسوعة الصغيرة (57)، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1980، ص 05.
[3]– عبد الرحمان منيف، عروة الزمان الباهي، المركز الثقافي، بيروت، ط 2، 1999، ص 89.
[4]– شاكر النابلسي، مرجع سابق، ص276.
[5]– أحمد مرشد، البنية والدلالة في روايات إبراهيم نصر الله، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 1، 2005، ص 130.
[6]– أحمد مرشد، مرجع نفسه، ص 06.

وكعنصر حكائي قائم بذاته إلى جانب العناصر الفنية الأخرى المكونة للرواية، ولعل سبب الانصراف عن دراسة المكان هو انشغال الأبحاث النقدية بالمضامين الفكرية والاجتماعية والسياسية للرواية". [1]

ويمتاز المكان بأهمية كبيرة في العمل الإبداعي، الرواية خاصة، وهو ما جعل الحبيب السائح يُكَيِّفُه في هذه الرواية تماشيا مع رؤياته السردية، لذلك جاءت أمكنة الرواية بين مغلقة ومفتوحة، بحيث تحمل كل منها أبعادا رمزية، كما تتفاعل شعوريا مع المؤلف والمتلقي على حد سواء.

إذ أن "المكان المغلق هو المكان المحصور من خلال خلجات النفس وتجلياتها وما يحيط بها من أحداث ووقائع". [2]

ويبدو أن الروائي يعي جيدا فاعلية توظيف المكان في الرواية سواء كانت هذه الأمكنة مغلقة أو مفتوحة، لأن "المكان هو الخطوة الأولى في وضع المادة القصصية في حيزها المحدد، وهو الذي يساهم في تقديم المناخ أو البيئة اللازمة لتحديد المجال الحيوي للمادة القصصية...". [3]

وينطلق المؤلف في نصه السردي هذا، من البيت بكثير من الذكريات والحنين، بحيث أن هذا المكان (البيت) "يمثل نقطة انطلاق للحديث عن السيرة الشخصية أو التاريخ العائلي". [4]

ولأن البيت هو كوننا الأول فتنحن دائما مرتبطين به ماضيا وحاضرا ومستقبلا ونعود إليه بذكرياتنا أو بأحلام اليقظة بحيث نجد أبأس بيوت جميلة مألوفة بالنسبة لنا وهذا ما يصرح به (غاستون باشلار) قائلا: البيت هو ركننا في العالم، إنه كما قيل مرارا، كوننا الأول كون حقيقي بكل ما للكلمة من معنى وإذا طالعنا بألفه فسيبدو أبأس بيتٍ جميلاً"[5]. كما أن وصف هذا البيت وانطباعاتنا حوله يقودنا إلى الوظيفة الأساسية للسكنى، وبالتالي كشف أهمية البيت لما يتوفر عليه من حماية وطمأنينة، وهو ما يوطد العلاقة بينه وبين الإنسان الذي يسكنه وذلك لأن: "البيت جسد وروح، وهو عالم الإنسان الأول"[6].

ورواية (أنا وحاييم) "للحبيب السائح" احتوت على العديد من الأماكن المغلقة –كما اسلفت الذكر- فكانت شعرية جلية بهية ودلالاتها متعددة قوية.

1- محمد عزام، فضاء النص الروائي (مقاربة تكوينية بنيوية في أدب مبيل سليمان)، الحور للنشر والتوزيع، اللاذقية، سوريا، ط 1، 1996، ص 111.
2- شاكر النابلسي، مرجع سابق، ص 16.
3- محبوبة محمدي محمد أبادي، جماليات المكان في قصص سعيد حورانية، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، د ط، دمشق، 2011، ص 124.
4- الأخضر بن السائح، سطوة المكان وشعرية النص، عالم الكتب الحديث، إربد، ط 1، 2011، ص 147.
5 غاستون باشلار، مرجع سابق، ص 36.
6 المرجع نفسه، ص 38.

1- البيت: هو ذلك المكان الذي يجده الإنسان كمأوى له ولأسرته حيث يشعر فيه بالمتعة والراحة والألفة، ولذا يؤكد (غاستون باشلار) على جوهر البيت فيقول بأن: "كل الأمكنة المأهولة تحمل جوهر فكرة البيت"[1].

كما يضيف باشلار في نفس السياق قائلا: "إن ساكن البيت يضفي عليه حدودا أنه يعيش تجربة البيت بكل واقعيتها وحقيقتها خلال الأفكار والأحلام"[2]. ولأن البيت وعاء للذكريات والأحلام التي تبقى تعيش داخلنا فإننا نستعيد أركانه المختلفة ونلقي عليها ما ينتابها من مشاعر وانطباعات نفسية، وعليه فإن (الحبيب السائح) نجح ووفق إلى أبعد ما يتخيل بجعلنا نحن المتلقين نشارك مساره السردي هذا –إن صح التعبير- بداية من أول حيز مكاني إلى النهاية، ومن هذه النقطة بالذات أي الحديث عن البيت هذا الفضاء المغلق تملكنا الخطاب السردي العذب الذي نتلمس فيه نبرة شجن للروائي يستعيد ذكرياته وصديقه حاييم ذلك: **"**أن مكانا مغلقا يجب أن يحتفظ بذكرياته، ويتيح لها في الوقت ذاته الاحتفاظ بقيمتها الأساسية كالصورة**"**[3].

وهذا ما حدث مع البطل (أرسلان حنيفي) في رواية "أنا وحايي" حيث انتابته نوستالجيا [4] وهو ينتقل في أرجاء بيت (حاييم بنميمون) البطل الثاني في الرواية، فقدم صورته من خلال مشهديه غاية في الوصف والتفصيل وعن طريق تقنية الاسترجاع السردي راح يصف كل ما تقع عليه عينه من أثاث وأركان منزل صديقه حاييم ويستعيد ذكرياتهما معا بنبرة ملؤها الأسى والحسرة.

وإذا كان البيت كما يقول (باشلار) "يحمي أحلام اليقظة، ويتيح للإنسان أن يحلم بهدوء فإن ذكرياتنا عن البيوت التي سكناها نعيشها مرة أخرى كحلم يقظة"[5]. وها هو البطل (أرسلان حنيفي) يسكنه حنين إلى الماضي فيستعيد ما مرّ به من ذكريات عن طريق أحلام اليقظة، فبيت "حاييم" إذا كان نقطة انطلاق السرد وهو مكان مغلق طبعا ومنه بدأت السيرة الذاتية للبطل، حيث عرف الروائي كيف يقدمها بالإضافة إلى سرد الوقائع التاريخية بأسلوب فني، فهذا الحيز إذا هو مكان رئيسي في بناء ومنطلق هذا الخطاب السردي، يقول (أرسلان) في هذا المقطع السردي من الرواية: **"**تقدمت وعند الباب الصامت، ذاك الذي رأيت حاييم يخرج منه بمحفظته قبل ثمانية وعشرين عاما كي نتوجه معا لأول مرة إلى مدرسة جول فيري، فككت كفي عن قطعة المعدن الباردة المعلقة في

---

1 غاستون باشلار، جماليات المكان، م س، ص 36.

2 المرجع نفسه، ص 36.

3 المرجع نفسه، ص 37.

4- النوستالجيا (باليونانية القديمة νόστος «الشوق»، هو مصطلح يستخدم لوصف الحنين إلى الماضي، أصل الكلمة يرجع إلى اللغة اليونانية إذ تشير إلى الألم الذي يعانيه المريض إثر حنينه للعودة لبيته وخوفه من عدم تمكنه من ذلك للأبد، تم وصفها على أنها حالة مرضية أو شكل من أشكال الاكتئاب في بدايات الحقبة الحديثة ثم أصبحت بعد ذلك موضوعا ذا أهمية بالغة في فترة الرومانتيكية، نقلا عن موقع ويكيبيديا أطلع عليه يوم 2021/07/14 على الساعة 14:00 زوالا.

5 المرجع نفسه ، ص 37.

حلق صغير بملصق مكتوب عليه بخط اليد "مفتاح الدار"، المفتاح الذي أولجته عين القفل وأدرته دورتين، ثم دخلت فانتابني مرة أخرى شعور، لم ينتبني حتى في يوم عودتي إلى دار جدتي بعد وفاتها"[1]. من خلال هذه الفقرة صور لنا السارد حالته الشعورية وهو ينتقل في زوايا بيت صديقه المشكَّل من عدة أركان إذ وكأن به يسائل مكوناته ويتبعها أساه، محاولا الإمساك بتلك اللحظات الجميلة الهاربة وتوقيف حركية الزمن، وبهذا يعيد طفولته متعاطيا مع المكان بصورة جديدة، ومشاعر صادقة تعبر عن الحالة الشعورية الآنية، فالبيت رغم ألفته إلا أنه بعد غياب حاييم فقد يبدو غريبا رغم بقاء كل شيء على حاله كما غادره آخر مرة وهو ما صرح به قائلا: "كل شيء، كل الأثاث، ظهر لي في مكانه على الحال التي غاده عليها حاييم آخر مرة، وكما أردت له أن يبقى منذ أن أوصيت الخادمة عونية بأن لا تزحزح شيئا منه، عند تنظيف البيت مرة كل نصف شهر ..." [2] ، حيث يستمر البطل في وصف البيت من الداخل متنقلا في أرجائه مصورا غرفه المختلفة وصولا إلى جنينة الحوش، ومحاولا رصد كل ما له علاقة بحاييم (اليهودي الطيب) الذي برع الروائي في خلق هذه الشخصية الروائية وجعلها محور الخطاب السردي، وهو أمر صعب وليس باليسير أن تنوع في ملامح الشخصيات السردية وكذا كيفية التحكم في انطباعاتها النفسية، وخلق عوالم وفضاءات خاصة بها، وهو ما لا يُأتى إلا لمبدع يتمتع بقوة الخيال والتصوير، مثل الروائي الحبيب السائح الذي يسافر بالمكان من شكله الهندسي إلى شكله الفني الإبداعي المرن القابل للتكييف متجاوزا مساحته الجغرافية، هذا ونجد البطل (أرسلان) يصور لنا غرفة (حاييم) بدقة متناهية، انطلاقا من ستار النافذة حتى "كتاب التوراة" مكثفا الزمن مستعيدًا اللحظات السعيدة التي جمعتهما، فكان هذا المكان متعلقا بالذكرى والحزن يفيض إنسانية وتعايشا سلميا، دون تمييز على أساس العرف والدين، وهو ما يتحسر عليه فعلا أرسلان حنيفي ابن القايد)، كما يدعو ضمنيا من خلال رؤيته هذه إلى التعايش السلمي وتقبل الآخر، على اختلاف الجنس والدين، وهو بذلك يشير أيضا إلى القيم الخالدة لهذا البيت ويستدعيها في أحلام يقظته ويستشعر كل تلك السعادة والطمأنينة والألفة التي كانت تجمعهما، وقد تمكن من إعادة معايشة هذه الذكريات عن طريق تكثيف الزمن، وقد تأتى هذا بفضل المكان (منزل حاييم)، ذلك: "أن المكان، في مقصوراته المغلقة التي لا حصر لها، يحتوي على الزمن مُكَثَّفًا، وهذه هي وظيفة المكان" [3].

استطاع البيت بوصفه مكانا مغلقا فتح مواجع بطل الرواية وشارك المتلقي في هذه الذكريات والحنين، فتكونت عن طريق الصور المختلفة التي صاغ فيها الروائي الأمكنة، تكونت شعرية خاصة وأضفت دلالات رمزية

1 الحبيب السائح، أنا وحاييم، دار ميم للنشر، الجزائر، مسكيلياني للنشر والتوزيع، تونس، ط1، 2018، ص 11.

2 مرجع نفسه، ص 12.

3 غاستون باشلار، جماليات المكان، مرجع سابق ، ص 39.

على تلك الفضاءات التي كانت مسرحا للأحداث المتعاقبة من خلال تقنية استرجاع السرد، كان منزل (حاييم)، المكان الرئيسي الذي انطلق منه الحكي، فالسارد وهو بهذا المنزل، انتابته نوستالجيا الأماكن الأخرى، أيام الطفولة والدراسة والكثير من الأشياء التي تقاسموها والأماكن التي احتوتهم فعاشوا فيها وبها، بل إنها تظل تسكنهم طيلة الحياة ذلك "أن الإنسان غير منفصل عن فضائه، بل إنه الفضاء ذاته"[1]. فبطل الرواية وهو يواصل سيره داخل هذا الحيز (البيت) تجتاحه الذكريات لا شعوريا، فيعيش صور المكان بكل أحداثه وشخصياته في حلم اليقظة، وفي هذا الشأن يقول (باشلار): "ما أروع ان نعيش اليوم في بيوت الماضي، وأن تتحد ذكرياتنا فجأة إمكانية حية للوجود إننا نتأمل الماضي ونشعر بالندم لأننا لم نعش نعمق كافٍ، ندم يمأ قلوبنا، يأتينا من الماضي وببعضنا"[2].

2- الغرفة:

من الأماكن التي تزرع في نفسية الفرد الشعور بالأمان والهدوء، الغرفة وهي من الفضاءات المغلقة، وفي هاته الرواية فإن الراوي (البطل) ينقل لنا ملامح تصويرية ومشاهد داخلية تميز هذه الغرفة، فوصف الخزانة التي مازال مكانها بما تحتويه من أشياء خاصة إذ تعبر هي الأخرى "بيت الأشياء" كما يصفها (باشلار) فيقول عن الخزانة إذ هي من الصور التي يمكن اعتبارها بيت أشياء مثلها مثل الأدراج والصناديق "أنها سيكولوجيا تختفي وراء مفاتيحها وأقفالها! إنها تحمل في داخلها نوعا من جماليات الأشياء المخفية"[3]. وعليه "فإن كل الخزائن ممتلئة"[4]. وهذا من خلال وصف ما تتخيله. ففي هذه الغرفة (غرفة نوم حاييم) التي ما تزال كما هي حيث أن الستائر والخزائن والسرير ...إلخ، كل هذا ساعد على اختزال الزمن وتكثيفه وأغنى ذاكرة بطل الرواية الذي استدعى صورة المكان قديما والشخصية التي كانت تمكث فيه في كثير من الألفة والطمأنينة، يقول السارد في هذا المقطع من الرواية: "وها هي غرفة أبويه، وقد صارت غرفة نومه بعد وفاتهما، هي الأخرى بنافذة ذات ستار مرفوف تطل على الشارع معلقة، لا تزال بخزانتها على جانبيها أفرشتها وأغطيتها منضدة على طاولتين؛ بسريرها الكبير بصوانيه؛ على أحدهما أبا جورة وعلى الآخر شمعدان المينوراه سباعي المواسير وكتاب التوراة بتجليد بني غامق"[5].

وقد نستشف من هذا المقطع السردي حميمية العلاقة بين أرسلان ابن القايد وحاييم بنميمون اليهودي بعيدا عن الاختلاف الديني أو الجنسي لأن الروائي إنما يدعو بطريقة مضمرة غير مباشرة إلى التسامح الديني وتقبل

1 حسن نجمي، شعرية الفضاء (المتخيل والهوية في الرواية العربية)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، المغرب، لبنان، ط1، 2000، ص 40.
2 غاستون باشلار، جماليات المكان، م س، ص 74.
3 مرجع نفسه ، ص 32.
4 المرجع نفسه، ص 32.
5 الرواية، ص 12.

الآخر بمعيار الإنسانية، وينبذ التمييز، إذ وهو يتحدث عن "كتاب التورات" ويصف حتى لونه لم يصدر منه أي انفعال سلبي أو إساءة لتلك الديانة الأخرى، بل تملكته نوستالجيا لهذا البيت الأليف، ووصف غرفة "حاييم" الخاوية من دونه يتحسر، فمن خلال اللغة الشعرية وقوة التخيل، تمكن الروائي من انتاج صورة شعرية طازجة عن هذا المكان، فيحمل المتلقي إبداعيا إلى التعايش مع هذا الفضاء المتخيل.

كما جعل لهذه الغرفة وجودا في ذهن المتلقي فتخيلها بكامل شكلها الهندسي، بالإضافة إلى براعة التخيل والسرد إذ أثث هذا المكان بالأشياء والشخصيات التي يستدعيها عن طريق الذكريات المسترجعة، يستمر البطل كذلك في مواصلة السرد بتذكر الماضي المكثف الذي لا ينفك يحاصره أنى ولى وجهه وهو متواجد ببيت حاييم، هذا الذي ظل يلازمه كظله. رغم اختلاف الدين والجنس، إلا أن الإنسانية والمصير المشترك وحّد بينهما، وهو ما جعل الرواية تتسم بنوع من الانفتاح الحضاري والدعوى إلى التعايش السلمي حتى وإن اختلفت الأديان.

ومن هذا المنظور فقد وفق الكاتب في خلق فضائه الروائي المتباين الذي أضفى شعرية خاصة على هذا الانتاج الإبداعي فتمكن من خلال هيكلة المتن الحكائي وأَمْكَنَتِهِ –إن صح التعبير– تمكن من ترويض المكان وصياغته في صور متعددة لكل منها جماليات خاصة، وهذا بفضل قوة الخيال واللغو الشعرية. ومن بيت حاييم دائما يتواصل الحكي ووصف ما يملأ هذا الحيز ويرسم ذكريات مضت احتواه ذات يوم، لنجدها اليوم مستدعاه لدى الكاتب صديق حاييم، بشكل يؤجج عاطفة الحزن والحنين داخله، وهذا ما نتلّمسه في هذا المقطع السردي، وهو يسافر بنا خياليا عبر الزمن، واصفا غرفة الجلوس بقوله: "مثلُها كانت غرفة الجلوس بنافذتها الكبيرة وستارها الشفاف بموتيفات نبات الشوفان المطلة على الحوش ... هنا كنت قبل ثلاثة أعوام شربت مع زليخة قهوة كان حاييم قدمها لنا بعد نجاته من السحل صباح يوم الاستقلال"[1]. وكان هذا التذكر والوصف عن طريق استرجاع السّرد، ومن ذلك استثارة الذاكرة وتحفيز الخيال، وضعنا الروائي في حيز مكاني متعلق به. له سماته ورمزيته الخاصة، فتمدد هذا المكان (الغرفة) ليتخذ لنفسه شكلا هندسيا وحيزا جغرافيا في ذهن المتلقي بصورة مختلفة ومتفاوتة، وهنا مبعث الشعرية والجمالية، وبما أن الخيال الإنساني هو مبدع الصور، لذلك فهي متنوعة بشكل ذاتي يقول (باشلار): "فإن الخيال هو قوة رئيسية من قوى الطبيعة الإنسانية، بالطبع إننا لا نظيف شيئا إذ قلنا أن الخيال هو مبدع الصور"[2].

1 الرواية ، ص 13.

2 غاستون باشلار، مرجع سابق، ص 30.

إن الفضل في إنتاج هذا الكم من الصور الشعرية للمكان يعود إلى ظاهريته الوعي الخلاّق كما يقر بذلك (غاستون باشلار) لذا كانت ثنائية الذات والموضوع متنوعة. "ففي هذا الاتحاد عبر الصورة الشعرية – لذاتية خالصة، ولكنها السريعة الزوال وواقع (ليس بالضرورة قد توصل إلى غاية تكونية) سوف يجد الظاهراتي مجالا لتجارب لا حصر لها[1]. لأن الخيال هو مبدع الصّور وما يميّزها إذا عن الذكريات من منظور باشلار دائما والكتاب وهو يطوف في أركان بيت صيغة، يستدعي ذكريات ويختزل الزّمن بحسّ نوستالجيّ كون هذا البيت له لقيم الخالدة منها الإنسانية فهو مصدر لتكشف الألفة، وبالتالي أضفى عليه ظلالا لغوية بيعة، فقرب صورته متجاوزا كينونته الهندسية لأنّ "البيت المجرّب ليس مجرد صندوق ساكن، فالمكان المسكون يتجاوز المكان الهندسي"[2]. وباعتبار الصور الفوتوغرافية هي الأخرى تكثيفا لفضاء زماني كانت لها إذا دلالات رمزية تنسكب في شعرية مشتهاة فألهبت مشاعر الحنين إلى أيام الطفولة والمدرسية واتعب وهو ما صرّح به في هذا المقتطف من الرّواية مواصلا بذلك مسحا وصفيا شاملا لغرفة الجلوس بقوله: "...على جدارها الأول إلى اليمين ثلاث لوحات زيتية وعلى الثاني المقابل صور نصفية مكبرة في براويز الأولى لموشي والد حاييم بعمامة من الجوخ، والثانية لوالدته زهيرة سماح كيم وجدتها في نظرتها الطيبة المسالمة ....تشبه جدتي ربيعة ! وهذه الثانية لحاييم نفسه، وهي تعود إلى السنة الأولى من دخوله مدرسة جول فري ، أثارت حنيني إلى جلوسي معه على طاولة واحدة، إل رائحة المداد وطقطقة حطب المدفأة ورنة الجرس، إلى زنقة الدرب ..."[3].

فالملاحظ أن مجرد صورة فوتوغرافية واحدة، كثفت الزّمن واستدعت فضاءات أخرى عايشها (أرسلان) مجددا بفضل حلم اليقظة، فحتى الرائحة هي الأخرى تستدعي أمكنة أخرى وبذكرياتها المكثفة وهنا مكمن الشعرية التي ينتجها الخيال بكل ليين وطواعية، وبالتالي يُشكل المكان كيفما يشاء فعن الصورة الفوتوغرافية يقول (باشلار): "إن الصورة الفوتغرافية للبيوت توقظ مشاعري نحوح الكوخ، وخلالها أعيش مرة أخرى النظرة الثاقبة للشباك الصغير"[4]. ومن خلال هذه الصورة أيضا، سّكن أحلامنا تلك البيوت ذات الرسم البديعة أو يحدث أن سكن نحن ذاك الحيز المكاني الذي جسده الفنان، وتتحكم في ذلك الحالات الشعورية بأنواعها استطاع الراوي إذا أن يجعل من منزل (حاييم) بأركانه المختلفة صورة فوتوغرافية (الصورة الفوتوغرافية لحياييم خاصة)، استطاع أن يجعل منه قضاء ونقطة انطلاق لمنجزه السردي، إذ اتخذه همزة وصل لاستدعاء أماكن أخرى بذكرياتها المتعددة، فبعد

1 غاستون باشلار، مرجع سابق، ص 19.

2 المرجع نفسه، م س، ص 67.

3 الرواية، ص 13.

4 غاستون باشلار، مرجع سابق، ص 70.

هذه السّفرية في ذكريات الماضي، ومعاشية أحداثها كأنها في الزّمن الحاضر، يعود الرّاوي ليقول –عطفا على ما سبق– : "عامذاك كنا سنبلغ الثانية عشرة، وعامها كانت الحرب العالمية الثّانية ستضع أوزارها بعد سنة "[1]، كان للروائي بهذا الفضاء الذي ابتدعه لسرد أحداث روايته وكذا هيكلتها القدرة على استقطاب ذهن المتلقي وإثارة أفق توقعه بالإضافة إلى إشراكه في التأويل والشرح والتخيل كذلك وبالتالي التأطير المكاني لهذا النص السردي، لأن كل فرد له رؤية مفارقة للمكان والأحداث، سواء تعلق الأمر بالبعد الفيزيائي له أو بالبعد التّخيلي، وهذا وفق الحالة الشعرية، وكذلك الفوارق الفردية لملكة خياله. "فالخيال يتخيل وعني نفسه دون توقف بالصّور الجديدة، وما أود استكشافه هو ثورة الوجود المتخيل"[2]. وبالتالي عملية التفاعل مستمرة بين المتلقي والنص الروائي وهي إيجابية تحسب للروائي، إذ جاءت روايته مثقفة متعددة الرؤى والأصوات فحققت بذلك "الحوارية" وهو ما يطبع الرواية المعاصرة المتعددة الخطابات....

من الأماكن المغلقة كذلك نجد:

3- المدرسة:

يسيطر هذا الفضاء الذي تم تذكره على ذاكرة الراوي، فاستثاره إلى أبعد الحدود، فراح يسرد طفولته مع حاييم، بدءا بالمغامرات المشتركة بينهما، من المدرسة ومشاغباتهما وكذلك كيفية معاملتهما بتمييز وعنصرية ...إلى مطارح وأماكن اللهو والعبث وأيام الصّبا والتجوال في بساتين الفاكهة بسعيدة والتنقل في شوارعها.

أثارت صورة حاييم كل هذه الذكريات والزمن المكثف، ومما يثير الدهشة هنا ويأسر روح القارئ، هي هذه الجمالية التي ابتدعها الرّوائي من خلال تفاعل الخيال مع اللغة فأنتج صورة.

شعرية جديدة للمكان داخل روايته، وعليه كانت صورة (حاييم) كفيلة بأن تستدعي مرحلة حياتية بأكملها بأمكنتها المختلفة وفتراته الزّمنية بكل التفاصيل، فانبثقت شعرية ذاك المكان الذي يشغل حيزا في الذاكرة، ولهذا يمكننا القول، غن صح التعبير أن هناك فضاءات يسكنها الإنسان بكل جوارحه ...، والأجمل من ذلك بكثير أن تسكننا هذه الفضاءات و تأخذ أشكالنا!

وبالعودة إلى الحديث عن المدرسة بكونها فضاءا له هياكله وقوانينه، وهي أولى مراكز التعليم التي نقصدها، ها هو الروائي يسترجع ذكرياته مع صديقه حاييم بالمدرسة، حيث كانت المعاناة القصوى بسبب المعلمين الفرنسيين، والتمييز العنصري الواضح القائم على أساس الجنس والدّين، إذ يشتم أرسلان حنيفي ابن القايد بلفظة "ابن العرين

---

1 الرواية، ص 18.

2 غاستون باشلار، مرجع سابق ، ص 31.

أو الأنديجان، لأنه جزائري بربري مسلم، كما تُسَاء معامله حاييم الذي يحمل الجنسية الفرنسية كونه من الأقلية اليهودية في الجزائر كما نجد (ألفونسو باتيست والد ماكس) زميل ارسلان بالمدرسة، يتهم المعلم (سانشيز) بأنه متعاطف مع الأنديجان كما يسميهم، ويهدده بقطع مساهماته الخيرية عن المدرسة إن لم يعاقب كل من أرسلان ابن العربي وحاييم ابن اليهودي وذلك لأتفه ألسباب التي ينقلها (ماكس) عنهما لوالده، يقول الرّاوي على لسان ألفونسو باتيست (أحد شخصيات الرواية): "أعرف يا بني لأن السيد سانشيز متعاطف مع الأنديجان" [1]، وألفونسو كشخصية في الرواية أتى بها الروائي ليعبّر بها على الآخر أي المستعمر.

عن طريق المدرسة كحيز مكاني وضعنا الراوي في تلك الفترة التاريخية فما عرفته من طمس للهوية وظلم إنساني وتتميز عنصري متطرف حمل هذا الفضاء صورة النظام آنذاك وكيفية التعليم والتبعية للآخر المستعمر، الذي هيمن على كل شيء، فجاءت دلالة هذا الفضاء المستحضر من قبل الروائي سلبته وسوء التسيير والقيم اللاإنسانية وكان من المعروض أن تكون المدرسة مهد تعليم الأخلاق وترسيخ الإنسانية وتقبل الآخر، والتعايش بسلام، وهو رفض ونقد ضمني من الكاتب لما كان سائدا يوم ذاك.

4- المكتبة:

تعد هي الخرى من الأماكن المغلقة التي كانت لها ميزة خاصة وحضورا دلاليا في مجريات أحداث الرواية محل الدراسة، إذ اتّخذها الرّاوي حيّزا انعزاليا لاستحضار أياما أخرى في مسار الذكريات... إذ يقول: "ثم انعزل في المكتبة لمدة ساعتين بين العاشرة ومنتصف الليل، فأستحضر على دفتر لولبي كبير، أياما أخرى من تلك التي تركت أثرا لها في وجداني..." [2]؛ فالمكتبة بما تحتويه من أنواع الكتب بمختلف الأحجام والعناوين وبالتالي المعارف متنوعة المصادر والمجالات، فهي تشبه الذاكرة مذلك محفوظة مرتبة ويمكن العودة إيها عند الحاج، كما يتطلب حيزها وطبيعتها الهدوء والتفكير دائما، ويتوفر هذا أكثر إذا كانت منزلية فردية.

لهذا اختارها الكاتب هي أيضا فضاء لأحداث الرواية، واسترجاع ذكرياته.

كما نستشف كذلك من خلال توظيف هذا الفضاء واعتكافه، ذاك الحوار القائم بين الماضي والحاضر وهو ما نجده في مسار السّرد ومن ذلك استحضار الماضي (الذكريات) وتوظيفه سرديا في الحاضر.

*** الثانوية:**

---

1 الرواية، ص 16.

2 الرواية، ص 19.

هي مؤسسة تعليمية تربوية فيها وهي المحطة الفاصلة التي منها يتم الانتقال إلى الجامعة، انتقل إليها الراوي وصديقه لاتمام التعليم وبالتالي تغيير المكان، حيث تتواجد هذه المؤسسة بمدينة معسكر كما اشار الكاتب: انتقلنا إلى ثانوية معسكر البعيدة بحوالي ثمانين كيلو مترا إلى الشمال على طريق وهران؛ فمدينة سعيدة، بوابة الصّحراء كما تسمى، لم يكن متاحا فيها خلال تلك السنين تعليم إكمالي وثانوي[1].

هناك، وكان لزاما إذ أن نخضعا للنظام الداخلي الصارم، الذي فيه يشعر الكاتب بالألفة والضيق من الوهلة الأولى، فيقول: "ظهر من باب الحراسة العامّة من تقدم نحو صفنا، نحن الجدد، بخطوات متأنية ثقيلة ومستقيمة رافعا رأيه بكبرياء، مرسلا إلينا نظرات لا تزال إلى ما تحت عيوننا تُعلن أننا سنكون تحت سلطته"[2]. ويضيف كذلك: ... لكن ما وقع هو أني منذ ليلتي الأولى وجدت نفسي، مثل حاييم وبقية التّلاميذ، خاضعا لصرامة النظام الدّاخلي الذي يحدد النوم والاستيقاظ والغسل والإفطار والغداء والعشاء بميقات إلزامي"[3].

عبر الرّاوي بهذه الصورة عن تعليمات هذا الحيز المغلق، الذي يبدو غريبا لا مألوفا، يحمل دلالة، انعدام الحرية والسّيطرة، وبالتالي يعطي انطباعا بالكآبة والضعف، وهو فضاء يثير الاشمئزاز والنفور والقلق.

هكذا ومن أجل التّعليم، فقد عنى الكاتب وصديقه من الظلم والتهكم داخل هذه الثانوية الفرنسية، وكان (مسْيو ديل) وهو من الأقدام السوداء بالإضافة إلى الآخرين الذين يمثلون الآخر في الرواية، كان يعامل أرسلان وحاييم باحتقار لأنّهما من الأهالي ومن الجنوب الجزائري الذي ينظر إليه على أن أهله فقراء متخلّفين.

رغم قساوة هذا المكان ونظامه التعسفي، إلا أن أرسلان قرّر وصديقه بكل عزم، التفوق والنّجاح وهو بهذا جسّد صورة لأي فرد جزائري إبّان الحرب وهو أسلوب مقاومة ناجح.

وقد حاول أرسلان التكيف مع هذه الثانوية ذات النظام الداخلي الصّارم حتى صارت مكانًا مألوفاً لديه، وهذا بواسطة انطباعاته ومشاعره تجاه هذا الحيزّ المكاني وما علق بحاسة شمّه م رائحة آتية من المطبخ ومربع الحديقة ... سكنت حاسة شمّي رائحة مركبة مما يأتي من المطبخ ومن الطلاء الجديد ومن الأشجار ومن مربع الحديقة الصّغيرة؛ ولاشك أنه كانت من أنفاس ذاك الحريق أيضا، كانت رائحة لم يسبق لي أن شممتها في أي مكان، وظلت تحيا كلما أثارني منبه إلى ذلك اليوم، كما في هذه اللحظة"[4].

5- الحافلة:

---

1 الرواية، ص 19.

2 الرواية، ص 21.

3 الرواية، 21-22.

4 الرواية، ص 20- 21.

الحافلة بوصفها وسيلة نقل تحقق لنا مآرب جمّة، إذ تختصر المسافات وتوصلنا إلى وجهتنا ومرادنا، كما تصبح هي الأخرى فضاءا زمكانيا، إن صح التعبير وذلك لما يجري فيها من أحداث والتقاء واحتواء لمختلف الحوارات، وكذلك الفئات الاجتماعية، فنجدها إذا تحضر في هذه الرواية بالإضافة إلى القطار والسيارة، فلم يفوت الراوي لحظة لوصف تنقله وصديقه من منطقتهم إلى الثانوية ذهابا وإيابا أو إلى الجامعة كذلك المدينة الجزائر، فالحاملة إذ كانت مكانا لالتقاء كل الأجناس وهذا يحمل أبعادا متباينة وتناقضات فكرية بل إن أكثرهم من الأوروبيين والأقدام السوداء.

يقول البطل: "كنا، أنا وحاييم، ركبنا من محطة الدّرب حافلة من نوع شوصون عائدين إلى الثانوية وسط مسافرين غالبيتهم من الأوروبيين والأقدام السوداء الذين لم يكن بينهم امرأة واحدة أو أطفال"[1].

وحتى في هذا الحيز (الحافلة) هناك تمييز طبقي جلي تماما كما هو موجود في بقية الأمكنة التي تعاني من اضطهاد الاستعمار وبالتالي فالبطل ينقل أحداثا تاريخية ومعاملات لا إنسانية مبنية على الطبقة ورفض الآخر، وهذا ما اشتملت به السياسة الكولونيالية من خلال خطاباتها المتطرفة، لذا فالروائي في هذه الرواية متعددة اللّغة والأنساق، بقدر ما برع في صياغة تجربته الإبداعية التجريبية الإنسانية من خلال لغته الشعرية، وتنويع الفضاءات السردية وكيفية تأثيثها وتكييفها والشخصيات، فقد برع أيضا وتفرّد وتمرّد وعيا، لا تبعية، وقابلية، وهذا من خلال الخطابات المضادة المناهضة للاستعمار، التي جاءت مضمرة في ثنايا الرواية، وهو ما جعلها تختلف عن كونها وثيقة تاريخية بضمان قابلية التلقي والتفاعل وهي فقرة نوعية في ميدان الإبداع الأدبي والروائي منه خاصة.

ونجد أرسلان يصرح –كمثال آخر على العنصرية والهيمنة التي يخضعُ لها بقية الأهالي–، قائلا: "في ذلك اليوم، وقد أخذنا مكانينا في نصف الصّف الثاني إلى يمين السّائق، لكزني بمرفقه ليلفت انتباهي إلى مسافرين من الأهالي قعدا في الأمام إلى شمالنا في الصّف الأول بعمامتيهما وبرنوسيهما وحذاءيهما الجلديين من النوع المشترط، وهمس..

كأنهما من الأغوات" [2]. .. ويضيف: "وإلا ما كانا صعدا إلى هذه الحافلة!"[3]. ملت في أذنه، هذا إنما يدل على اضطهاد وظلم ضد الإنسانية وهو ما يلمح له الراوي من خلال هذه الرواية التي تحمل في طياتها دعوى إلى إعادة مساءلة التاريخ ومغالطة الرؤى والشعارات الكاذبة خاصة شعارات الثورة الفرنسية يقول البطل مرة

1 الرواية، ص 38.
2 الرواية، ص 81.
3 الرواية، ص 81.

أخرى: "وقد حدث وأن شاهدت أحد الأهالي في شباك المحطة رفض له أن يقتطع تذكرة سفر لأن هندامه رثّ" [1].

لعبت الحافلة بصفتها وسيلة نقل، دور المكان بحيث نجد كل من البطلين يتبادلان أطراف الحديث على العادات والطموحات والذكرى المشتركة.

6- بيت الجدة:

يحمل هذا البيت حميمية ودفئا خاصة لما للجدة من حنان وحنّو، كما يوفر هذا البيت كل الحرية واللقاءات العائلية الجميلة وهو الفضاء المألوف والمفضل لنا جميعا، والمألوف والمحبّب طبعا لدى البطل الذي يجد فيه كل الراحة والحب من قبل الجدة، وهذا الحيز إنما يحمل دلالة الأصالة والعرافة والذاكرة الجمعية...

وقد سيطر على عاطفة السارد كليا لأن انطباعنا على الشيء هو الذي يعطيه ماهية (يصبح موضوعا) وبالتالي يتخذ وجوده، ويصبح مألوفا وهذا ينسحب بالدرجة الأولى على المكان الذي نحبه "إنه لوضع غريب فالمكان الذي نحبه يرفض أن يبقى منغلقا بشكل دائم أنّه يتوزع ويبدو كأنه يتجه إلى مختلف الأماكن دون صعوبة ويتحرك نحو أزمنة أخرى، وعل متلف مستويات الحلم والذاكرة[2]. لهذا فالبطل حظي بالرعاية والحب والاهتمام الكبير من قبل الجدة في بيتها المغلق الذي يحمل دلالة السرية والتاريخ .... كانت تعقد الاجتماعات والتخطيط للثورة، إذ لا يمكن عقد حدث هام في مكان مفتوح ومن هنا اكتسب هذا الفضاء شعريته من خلال وظيفته وخصوصيه، وهو بؤرة الصراع بين فرنسا والجزائر، إذا الجدة تحمل دلالة التاريخ، أي تاريخ الجزائر الأصيل، لذلك كان مقدس الخصوصية، يقول البطل: "يا أنت يا جدّي! كيف لا أغبطك رحلت عنها وفي قلبك جمرة عشق لاهية"[3]. وهي كلمات تحمل رمزية واسقاطا مباشرا على التاريخ والأرض الأصلية (الجزائر).

وكان البطل يسجل الأحداث التاريخية التي ترويها جدّته عن أجداده باهتمام وافتتان للفكرة جدّته الجميلة التي تتقن اللّغة ولها ثقافة ومخيال كبير شاسع إذ يقول معجبا بها: "أنا الذي أرى وجوه سيدات أوروبيات جميلات ليست بملامح جدتي، وذلك رمزية عن الأصالة والحكي هو التاريخ والهوية الجزائرية والعادات والتقاليد والأعراف الاجتماعية الدّالة على الثورة يقول البطل: "إني أذكر ما سجّلته يومها، كأني أفعله الآن، على كراستي التي منها اسمعت جدتي: تصورت حكومة باريس ذلك من بين الحلول الجذرية لتظهر المتروبول من بؤسائها ومتشرديها

---

1 الرواية، ص 81.

2 غاستون باشلار، مرجع سابق ، ص 72.

3 الرواية، ص 104.

والنّافهين اجتماعيا والمتروكين لقدرهم والمسبوقين قضائيا وغيرهم من الحثالات"[1]. ويضيف قائلا: "فنظرت إليّ بما حوته عينا جدة من فخر بحفيد تراه يقارع النصارى ببعتهم ومعرفتهم"[2].

فهذا المكان المغلق "بيت الجدة" حقق شعرية ورمزية مضمرة نستشف من خلالها إيديولوجية الخطاب المضاد والرد على الهمجية الكولونيالية حفاظا على الوطن، فالاجتماعات السرية والكفاح المسلح يتطلب تخطيطا في مكان أكثر أمنا وسرية وهو ما حققه ووفره بيت الجدة (التاريخ الأصيل).

7- الجامعة:

هي مؤسسة التعليم العالي والبحث العلمي، وهي آخر محطات مرحلة التعليم وفي هذا المكان يتحدد المسار الدّراسي ومنه الحصول على شهادة نهائية، وهذا الحيز المكان قد احتوى البطل وصديقه بعد نجاحهما في شهادة الباكالوريا فاختار حاييم تخصص الصيدلية كما كان حلمه، في حين اختار أرسلان تخصص الفلسفة وهو أول من يتحصل على الشهادة من الأهالي وتوفر له أن تنقل إلى الجامعة بالجزائر بكل فخر إذ هو ابن القايد حنيفي الذي تعرض لكل أصناف التهميش والعنصرية، هذا المكان إذا هـ ملتقى لجميع الفئات وبالتالي تنوع الأجناس والرؤى والمذاهب، كذلك كونها تقع في المدينة قلها خصوصيتها وثقافاتها لأن ذلك يتنوع بتغيير المكان، وبهذا الحيز أكيد رغم انفتاحه وانع... كما حلم الصديقان، إلا أنهما تعرضا إلى الاحتقار مثل كل مرة يقول أرسلان: "ومثل حالمين ساقنا حديثنا إلى ما تتيحه الجامعة من انعتاق وانفتاح، بما تخلقه من طموح وتنمية من علاقات وكنث بدوت أكثر حماسا من حاييم إذ قلت له إن الجامعة في عصرنا، لما يجري فيه من تحولات اجتماعية وثقافية وفلسفية، تغدو الفضاء الوحيد الذي يمكن لنا أن نتحرر فيه من أي رقيب !"[3]. وهذا دليل على ثقافة أرسلان ووعيه وكيفية رؤيته للحياة الجامعية والفكرية بكل وعي فهي فضاء يستمد جمالياته من النشاط والحيوية والذكريات الجميلة التي تقاسمها الأصدقاء وتبادل الرؤى والتخطيط الجيّد لمحاربة كل أشكال الاستعمار، وإرساء لفكرة الانفتاح والتعايش السّلمي.

8- المقاهي والنوادي والمطاعم:

كانت بدورها فضاءات هامة في بناء وتسلسل أحداث الرواية وتفاعلها مع عناصرها المختلفة، إضافة إلى أنواع المأكولات المقدمة فيها ومجالس القهوة والشاي، كانت كذلك محطات تدور فيها الجدالات والسّجالات بين

1 الرواية، ص 104.
2 الرواية، ص 104.
3 الرواية، ص 70.

الطلبة والفئة المثقفة، فتتنوع الأفكار حول العلاقة بين المستعمر والمستعمر، ومن ثم الآراء التضاربية بخصوص هذه العلاقة، فداخل هذه الأماكن المغلقة كما جاءت في الرواية، نجد الأهالي والأنديجان يعانون التّهميش والتميز العنصري مثل النظرة الدونية والاقتصادية للأقدام السوداء تجاههم وتجاه المسلمين واليهود المجنسين كذلك.

كانت هذه الأماكن مسرحا لتنوع الإيديولوجيات، وبالتالي إنتاج خطاب مضاد من قبل الفئة المثقفة التي تقدس الوطن وتدعوا إلى التعايش السّلمي في ظل تعدد الثقافات وتمثيل الاختلاف الدّيني لأن الإنسانية وحدها هي القاسم المشترك بين بني الشر. والوطن هو أحد الركائز التي يقوم عليها الانتماء الهوياتي الواجب امتلاكه وحمايته.

ومن بين هذه الجدالات والنقاشات ما يتحدث عنه أرسلان إذ كانوا بإحدى المقاهي يقول: قلب: من دمّر ثقافة تلك الشعوب وارتكب في حق إنسانها جرائم إبادة منتظمة غير الاستعماريين الإداريين"[1]. ويُضيف قائلا: "وجدتُ نفسي في صدام لفظي مع صاحب البشرية الأسود سرعان ما فضّ بتدخل من أطراف من الجانبين، لكن صاحب وهو ينسحب خارجا من الكافتيريا، زمني نحوى مُلتفتا: آمل على الأقل أن لا يكون هذا المدافع عن تلك الشعوب مجرد أنديجان"[2].

كان أرسلان بصفته فردا جزائريا مثقفا ومتفوقا دائما في مساره التعليمي، الذي لم يكن متاحا لكل الأهالي بسبب الإقصاء والتّمييز، كما أن اختياره تخصص الفلسفة لم يكن من محض الصّدفة، إنّما لما ينتجه هذا التخصص من مناقشة ومحاورة الأفكار وهو ما تأتي للبطل أرسلان الذي يعبّر عن نموذج جزائري مثقف كان له الدور الفعال في التاريخ الجزائري غبان الثورة وبعدها.

هكذا فقد كان أرسلان يطرح آراءه وأفكاره بكل جرأة ويعبّر عن مواقفه من السياسية الكولونيالية بكل حرية بهدف ترسيخ فكرة التسامح الدّيني، ودحض وتفويض كل الشعارات العنصرية.

هذه الجرأة والتمرد في الطّرح، كانت تعرضه لصدامات لفظية حادة من قبل دعاة العنصرية والتّطرف، ولذا يقول ردّا على أحد المعارضين، وقد عيّره لكونه "أنديجان": "لا أدري اليوم أي شيء كان سيُسفر عنه الاشتباك بيننا لو أنه وقع، افقد انفلت من قبضة حاييم الذي طوقني مانعا إيّاي من التقدم، بيد أن غيره كان أمسك بي من ذراعي بقوة، ناطقا لي بلهجة عربية "حليك منوا"، وهزني من مرفقي: ذاك عنصري أعرفه هو وجماعته"[3].

1 الرواية، ص 80.

2 الرواية، ص 80.

3 الرواية، ص 80.

يتعرف أرسلان بهذا المكان "الكافيتيريا" بعد تلك الحادثة، على (الصّادق هجاس)، وهو طالب بكلية الطّب، ينتمي إلى الحزب الشيوعي الذي ينادي بحرية الجماعات والشعوب.

ثم يعرفه أيضا بصديقه حاييم بنميمون، وبالتالي يشعر أرسلان بالأمان، إذ يقول: "بدا لي فجأة أنّنا لم نعد وحدين، أنا وحاييم، فقد وجدت الصّادق أيضا، ذا جاذبية لافتة، لقامته الطويلة ووجهه الجميل المثير للغبطة وصوته العميق، إذ دعاني: خلّينا نلتقي"[1].

لقد وفّق الراوي بخلق هذه الشخصية السّردية المتمثلة في (شخصية الصادق) والتي ستكون هي الأخرى له دورا بارزا في سيرورة أحداث الرّواية، من المواقف والآراء والأهداف المشتركة والثقافة الواحدة، فالتغيير باللهجة الدّارجة هو من سمات الرواية المعاصرة التي تمتاز بتعدد الأجناس والأصوات واللّغة وهو ما طبع الرواية محل الدراسة (أنا وحاييم) بالإضافة إلى أن هذا التغير هو في حدّ ذاته أحد وسائل الدفاع عن الهوية الجزائرية وترسيخها باحتواء كل فئات المجتمع، إلى جانب تمكن الطلبة من الفصحى، ويتعرف أرسلان من خلال الصادق كذلك على (حسيبة) وهي طالبة بقسم الفيزياء الكيمياء والبيولوجيا، لتعرف هي الأخرى على حاييم، كما أن تنوع التخصصات بالنسبة للطلبة دليل على وعي المتعلم الجزائري آنذاك بأهمية هذا التنوع بالإضافة إلى تفوقهم وأن كل هذا مفيد ما دام في خدمة الوطن والمصالح العامة، هذا ونستشف من خلال المناطق التي وفد منها هؤلاء الطلبة واختلافها على الوحدة الوطنية وعدم إقصاء جهة على حساب أخرى ونبذ الجهوية، إذ الهدف المشترك هو الوطن والحفاظ على الهوية الوطنية، وردع المستعمر للعيش بسلام في ظل التّعددية الثقافية، كما أن الطّلبة حسبية تعتبّر عن (حسيبات الجزائر المثقفات وأن لنوع من التّحدّي أن تنتقل فتاة إلى الجامعة وقتذاك، ودون شك أن الروائي تعمّد إقحام شخصية حسية في مجريات الأحداث الرّواية، بوعي، أو بلا وعي وهي شخصية تاريخية تحمل دلالة رمزية مكثفة من مثل الشجاعة والإقدام والتّحدي، وبذلك دعوى مضمرة إلى الافتداء بها، وكذلك عدم إقصائها إلى جانب الرجل في مواجهة المستعمر وكذلك الرّد على الخطابات المتطرفة، وبسط الآراء ومناقشة الأفكار.

كما نجد حسيبة وهي تحدث أرسلان عن القضية، وتكشف عن ثقافتها التاريخية وتمسكها بالأصالة والحفاظ على الهوية، لكون القضية تعبر عن الذاكرة الموحدة الجماعية التاريخية التي وجب الحفاظ عليها والتعريف بها كذلك إذ ووعدت أرسلان بأنها ستدعوه لزيارة حي القصبة العجيب، قائلة: "القصبة هي المدينة الأصلية للجزائر التي بنيت على أنقاض رومانية، وما حولها لم ينشأ إلاّ مع وقوع الاحتلال"[2]، قالت هذا باعتزاز على حدّ

1 الرواية، ص 81.
2 الرواية، ص 83.

تعبير أرسلان قم أضافت: "لكن للقصبة ذاكرة تقول لنا إياكم أن تنسوا أني الوجود الأصلي لكم"[1]. ما أكدة حسيبة بهذا أنه لابد من حفظ الأصول التاريخية والذاكرة الجماعية لنا، إذ القصبة هي تكثيف لتاريخ حافل بالإنجازات الإنسانية المشتركة.

ساهمت هذه النخبة المثقفة من الطّلبة في نشر الوعي بين باقي الفئات من الأوساط الطلابية فكانت كلها مهتمة بقضايا الوطن ومصير الإنسان، تدور بينهم النقاشات والطروحات المختلفة وطرح الحلول الممكنة؛ سواء قوبلت بالتأييد أو لمعارضة، فبالإضافة إلى المقاهي التي كانت تدور فيها أيضا الحوارات المختلفة. نجد النوادي مثل نادي الطلبة المسلمين كانت مقر النقاش الأفكار.

يقول (أرسلان) وقد قبل دعوة الصّادق إلى النادي: "ودعاني، الصّادق، بعدها، إلى مرافقتهما في الأسبوع المقبل إلى نادي الطّلبة المسلمين"[2].

ولأن النادي هو فضاء يستقطب كل الفئات الثقافية فتطرح فيه وجهات النظر المختلفة وتعدد الرؤى بين أخذ ورد، نجد (أرسلان) يقترح على صديقه حاييم مرافقته إلى النادي يقول: "صبيحة يوم الأحد، وصلنا في لباسنا الشتويين إلى النادي الكائن قريبا من ساحة الدوق دورليان، متأخرين قليلا لطول المسافة التي قطعناها إليه مشيا، وجدناه غضّ بالطلبة فاضطررنا إلى الوقوف في الخلف، ليسبقنا في إثارة أهم أفكاره لبعضنا بما كنا تعرفه من أوضاع الأهالي الاجتماعية القاسية في الأرياف وفي ضواحي الصفيح والأحياء الشعبية لم يكن استثنائيا بالنسبة إلينا"[3].

وبهذا نستنتج الوعي المشترك لهؤلاء الطلبة وهدفهم الواحد الهوية والوطن وتحقيق العدل والمساواة.

كانت المطاعم بالإضافة إلى كونها فضاءات تقدم فيها مختلف المأكولات وأنواع المشروبات، حيزا للنقاشات وطرح الأفكار والرؤى المتعددة، وتقديم الفرضيات والحلول الممكنة من قبل النخبة المثقفة من الطلبة، كذلك الحديث عن العادات والتقاليد لكل منطقة، يقول السارد (أرسلان) وهو يتحدث عن دخوله أحد المطاعم رفقة أصدقائه الطلبة: "وعند دخلنا المطعم الذي بدا يقصده خليط من الأهالي ومن غيرهم من عمال الميناء والحرفيين والموظفين ....، وكان الحديث قد أخذنا خلال تناولنا الغداء، إلى عائلاتنا، فذكرت أن أهلي لا يزالون

1 الرواية، ص 83.

2 الرواية، ص 88.

3 الرواية، ص 91.

يحتفظون بما تبقى لهم من أراضٍ، وقال حاييم إن والده تنقل بين أكثر من حرفة، كتاجر صوف، وصايغ مجوهرات فضية ...".[1]

كان هذا المكان المغلق هو الآخر مقرا لإلتقاء هؤلاء الطلبة، وبالتالي يتبادلون أطراف الحديث ويشعرون بالراحة لفترة من الزمن، بالرغم من المضايقات التي يتعرضون لها من زملائهم من الأجناس الأخرى..، ومن هنا يمكن القول أن المطعم في هذه الرواية لم يكن مجرد حيز جغرافي فحسب، بل ساهم في إضفاء لمسة شعرية متعددة الدلالات، وذلك من خلال تعدد وجهات النظر، وكذا الأطباق المقدمة لمختلف الأجناس البشرية، ومن هنا يكتسي هذا الفضاء المتخيل الذي أبدعه الروائي جمالية ووظيفته الشعرية الخاصة.

9- الصيدلية:

تمكن الروائي من تكييف هذا الحيز المكاني بما يخدم مجربات الأحداث الروائية، فنقله من مكان لبيع أنواع الأدوية، إلى مكان أكثر فعالية وأهمية بحيث اتع دوره ليصبح مقرا لعلاج المناضلين في صفوف جيش التحرير الوطني ونقل الأدوية المختلفة لإسعافهم، كما كان كذلك ملجأ السرية، ومن خلال هذه الوظيفة يستتب هذا الحيز صورة شعرية ورمزية عمد الروائي إلى رمسها وبرع في تصويرها. فجاء هذا المكان المغلق صورة أخرى من صور المقاومة ومهدا لرفض الظلم والاستعباد.

فصيدلية حاييم إذا، كانت ملتقى ومكان تنشط فيه المجموعة المناضلة وتهرب إليه، بحيث يقوم الصيدلي حاييم بإسعافهم بكل مسؤولية وثقة. يقول أرسلان عن زليخة إذ أصيبت أثناء ملاحقتها (لآلان بورسييه) قاتل والدها: دخلت الصيدلية من بابها الخلفي حب مخطط الانسحاب. وجدت حاييم في انتظارها. أدخلها المخبر وربط على ساعدها ضمادة لإيقاف النزيف".

ويضيف (أرسلان): "بعد حين حظر ممرض لم يكن من الأهالي خاط جرحها الذي تطلب ثلاثة غرز وهمس، كأنه يخبر حاييم الواقف عليها برباطة ملأتها ثقة، أنه من حسن الحظ أن العظمة لم يصب".[2]

الصيدلية كما سبق النكر، كانت مكز علاج وكذلك همزة وصل بين المدينة والجبل، وفيها يتم وضع الخطط لير عملية فدائية ما ومن ثم ملاحقة الظالمين، والتمكن منهم في منازلهم، كما هو الحال في الاشتباك بين زليخة وألان بوبيه الذي لاحقته وتمكنت من إطلاق النار عليه رغم إصابتها، إلى عولجت على إثرها بصيدلية حاييم، لتعود منها إلى الجبل في سرية لأمة، تقول : "لا أتنكر حين خرجت سوى أني وجت سي فرجي عند

[1]- الرواية، ص 99.
[2]- الرواية، ص 182.

الباب الخلفي مع خيط الاتصال الذي رافقني تحت المطر والظلام مشيا عبر مسلك في وادي الكويف إلى غابة الكرارمة ومنها إلى جبل عين سلطان حيث وجدك في انتظاري مع فج الجنود". [1]

فنظر لهذا الدور الذي كانت تقوم به لصيدلية كان حاييم يتعرض للتهديدات كذا المداهمات، وحملات التفتيش، كونها مكان مشبوه يدعم الثوار والمجاهدين، وبلغ الأمر إلى حرقها من قبل المستعمرين العنصريين، يقول الراوي: "وقفنا أمام الصيدلية التي كانت آثار الحريق لا تزال بادية على جدارها الأمامي. تأملت بقايا الخراب الصغير الذي كانت تشهد عليه كلمة " Juif" (تعني اليهودي وهي عبارة عنصرية شاتمة) المتبقية من عبارة مكتوبة فيم بين الباب والواجهة بلون أحمر أدكن من أثر الدخان". [2]

من خلال هذه العبارة العنصرية التي تخر في النفس، أرد الروائي أن يشحن هذا المكان بدلالات مختلفة تنأى به عن كيانه الهندسي إلى وجوده الثقافي والحضاري من خلال الخطابات المتباينة التي يحملها وكذلك الوظيفة التي أداها، وهنا تكمن الدلالة المضمرة لهذا الحيز المكاني وذلك بفضل اللغة الإيحائية وبراعة التخيل التي يمتلكها الروائي، والتي من منطلقها يكتب كل متخيل فضائي شعريته الخاصة.

10- المقبرة:

تتصف المقبرة بكونها حيز ضيق له رموز ودلالات فهي المكان المقدس، فيه يدفن الموتى بكل خشوع واحترام، والراوي أبتدع هذا الفضاء في روايته وأعطاه أبعادا رمزية خاصة بما يتناسب وأسلوبه الخطابي، وفكرته وقناعته التي يهدف إلى ترسيخها، بالإضافة إلى المغارقة التي يحملها هذا الحيز المكاني المغلق. الذي يعتبر المثوى الأخير للكائن البشري على اختلاف دينه وجنه، وقد ذكر الروي المقبرة، أو ما يدل عليها في أكثر من موضع، وأوردها في صورة تعبيرية إيحائية، ومن ذلك اكتسبت شعريتها، كما كانت فضاء يبعث على الحزن والأسى والنهاية التي لا أمل فيها، واسترجاع الذكريات بكل تحصر. ويقول البطل " لم أكن نسيت إن لم أذكر أني عقب الاستقلال زرت قبر أمي كلما عدت إلى المزرعة لأن ذلك شأن يخصني في علاقتي هبا مثلما أذكر الآن أني بعد أرم من دفنها في مقبرة بطون آل حنيفي وفروعهم.... نزلت من الجبل فقمت على قبرها وبدمع حزني قرت آيات على روحها. [3]

ويضيف قائلا : "وها ذاكرة شمي تستعيد لي رائحة بشرة أمي ممزوجة بطيبها". [4]

[1]- الرواية، ص 183.
[2]- الرواية، ص 272.
[3]- الرواية، ص 196.
[4]- الرواية، ص 196.

حاول الروائي كذلك، من خلال المقبرة التأكيد على الخطاب الحضاري الذي تبناه، والمتمثل في التعايش السلمي والدعوة إلى تقبل الآخر واحترام معتقداته، لأن القاسم المشترك هو الأنانية كلنا أبناء آدم أصل السلالة البشرية.

كما أكد كذلك على الدور الفعال الذي قامت به فئة اليهود الجزائريين والمتمثلة في شخصية حاييم، الذي كان يخاطر بحياته من أجل المناضلين وذلك من –خلال الأدوية التي كانت سلاح من نوع خاص، لذلك نجد البطل يسرد زيارته لقبر صديقه حاييم بنبرة ملأها الأسى والتحسر، يقول: "درت يمين باتجاه حي الكاستور جنوبا، وفي المنحدر إليه، ضيقت شمالا وتوقفت عند مدخل "جبانة اليهود" ، هناك تنكرت أن ثلاثة أشهر كانت قد مرت على وصول حاييم الأخير إلى عامل صمته النهائي، وكأنما ثلاثة ألأم أو ثلاثة ساعات".[1] ويرد قائلا : مررت عند القبر أخرجت يدي من جيبي الكباردين فخللت إلى الخلف شعري المبلل برذاذ المطر، وقد ثبت من بين العشرات التي تتالت عابرة كشريط في ذهني، صورة واحدة لحظة قرئت اسم حاييم بن ميمون تحت النجمة السداسية محفور بالحروف العبرية: إنما وجهه الهادئ الباسم إذ قال لي: نحن جميعا أبناء أبينا آدم، تلك الجملة التي كتبها لي على الكراس.... إثر نقاش بيننا حول السامية والحامية، وقال سارحا عني، إن ذلك أجمل ما يمكن أن ينقش على حجرة لحد" [2]، وعبارة حاييم كلنا أبناء أبينا آدم تحمل بعدا أنانيا، سعى الراوي إلى ترسيخه وهي دعوة إلى تكريس مبدأ التعايش السلمي بغض النظر على الاختلاف العقائدي، ونبذ كل أساليب العنصرية.

كما تحمل المقبرة كذلك – لكولها من الأماكن المغلقة، أبعاد رمزية ودلالية استطاع المبدع " الحبيب السائح " تجسيدها من خلال لغته الشعرية وأسلوبه الخطابي المثقف، فجاء بذلك هذا الحيز مشبع بمعاني مضمرة تستنشق من خلال تداوليات الخطاب الأدبي الروائي وهذا إما خلق الشعرية المكانية وأسهم بالتالي في إضفاء جمالية مغارقة داخل الرواية محل الدراسة.

هذا ويذهب الراوي إلى ترسيخ ما يهدف إليه وما توارى من أنافي فكرية اشتملت عليها الرواية، إلى استثمار المكان "المقبرة " لتأكيد دعوته الصريحة إلى ضرورة التعايش وتطفل الاختلاف والانفتاح على الآخر، واحترام حرية المعتقد، كذلك سماحة الإنسان، ودحض مقولات العنصرية على أساس الدين والجنس واللون، وهذا ما يؤكده التصرف الإنساني الحضاري من قبل البطل أرسلان محققا حلم صديقه حاييم الذي أخبره : "نحن جميعا

---

[1]– الرواية، ص 329.

[2]– الرواية، ص 330.

أبناء أبينا آدم"، أجمل ما يمكن أن ينقش على حجرة لحد [1] ، ويقول أرسلان: "أعددت لحاييم ذلك عند أشهر صائغ لرخام القبور هنا بمدينة وهران وقد نقلت الرخامة وثبتت على قبره بشهر" [2] ، ويضيف داعيا له بقوله : "ليطب مقامك في مثواك الأخير في بيت علميين هذا". [3]

فالملاحظ إذا أن المقبرة ليست شكلا هندسيا فحسب بل شاكت في رفع مستوى الخطاب الدلالي، فكانت مكان تأتي شعريته من خلال ما أشتمل عليه من أبعاد دينية وإنسانية وثقافية، إذ أن كل الناس سواسية في المقابر ولا تنفع صراعات الدين والجنس، كذلك القبر هو المثوى الأخير، لذا يجب احترام إنسانية الإنسان وتقبل اختلافه العقائدي للعيش بأخوة وسلام.

ب- شعرية المكان المفتوح :

يعد المكان المفتوح مساحة واسعة داخل العمل الأدبي، بحيث تجد فيها الشخصيات كامل حريتها في الحركة والانتقال، ويكتسب هذا النوع من الأماكن قيمته الفنية والشعرية من خلال تكثيف الصور الحسية وكسر الحواجز والتخلص من الضغوطات الداخلية، لهذا فإن له أهمية بالغة في العمل الروائي، إذ يتجاوز الطبيعة الهندسية سواء كان مكان واقعي أو خياليا، ليعبر رمزاي عن بنيات وأناق فكرية تتوارى وراء تداوليات الخطاب، وهنا تكمن شعرية هذا المكان المفتوح أو ذاك، وعليه نجد أن المكان المفتوح يحضر في رواية "أنا وحاييم" كعنصر أساسي في بنائها ساهم في استنطاق المضمر من الخطابات الصامتة، وتجلى ذلك من خلال الأحداث وطبيعة الأدوار التي ساهمت بها الشخصيات الروائية.

لذلك كان توظيف الأماكن المفتوحة في الرواية يكتسي قيمة ودورًا بارزًا إذ "تكون مسرحا لحركة الشخصيات وتنقلاتها وتمثل الفضاءات التي تجد فيها الشخصيات نفسها كلما غادرت أماكن إقامتها الثابتة مثل الشوارع والأحياء والمحطات وأماكن لقاء الناس خارج بيوتهم كالمحلات والمقاهي" [4] ، وتساهم هذه الأماكن في تغيير حياة الأفراد الاجتماعية والثقافية والعلمية، كما أن تعدل حالاتهم الشعورية. هذا بالإضافة إلى كونها تحمل الكثير من القيم والدلالات المختلفة، كما أنها تساعدنا على "الإمساك بما هو جوهري فيها أي مجموع القيم والدلالات المتصلة بها". [5]

---

[1]- الرواية، ص 330.

[2]- الرواية، ص 330.

[3]- الرواية، ص 331.

[4]- حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، م س، ص 40.

[5]- المرجع نفسه، ص 79.

وصف الحبيب السائح في رواية "أنا وحاييم"، ثنائية الأماكن المغلقة والمفتوحة، ولكل منها شعرية خاصة، فاختار الأماكن المفتوحة ميدانا لحركة شخصيات الرواية وانتقالها، فحققت فسحة وحرية سواء لأبطال الرواية أو للمتلقي الذي أصبح هو الآخر عنصر هام في عملية التواصل والتلقي والتأويل.

فالبطل أرسلان لم يهمل ولو لحظة صديقه حاييم على طول المار الردي، موظفا في ذلك الأماكن المفتوحة لسرد الفعل التشاركي الذي جمعه هو ورفيقه، وذلك عن طريق تذكر محطات من حياتهما منذ الطفولة حتى الشباب، والتي عاد الراوي إليها من خلال السرد الاستذكاري، ومن هذه الأماكن تذكر:

1- الشوارع والأحياء:

يعد كل من الشارع والحي أحد أجزاء المدينة ومكانا هاما يتنقل فيه الأشخاص على اختلاف بيئاتهم وبنيتهم الاجتماعية ومستوياتهم الثقافية بكل حرية ذلك لأنه الحيز المفتوح الذي يمكن رواده من الفسحة والطلاقة، ولكل فرد رؤيته الخاصة عن الشوارع، وما تتميز به من فلسفة حياة تختلف في الزمان والمكان.

وقد وظف الروائي الحبيب السائح هذا النوع من الأمكنة ليبث من خلاله خطابه الحضاري الداعي إلى الانفتاح والحوار منطلقا من مرجعيات تاريخية وثقافية واجتماعية، وقد جعل من صداقته مع (حاييم بنميمون) قصة لبناء أحداث الرواية سرب من خلالها الدعوة التي تقبل الآخر والمثاقفة والتسامح الديني فنجده يتذكر أيام الصبا والضحك والطيش مع رفيق دربه حاييم فيقول: "في طريق عودتنا إلى الدرب، وقد عبرنا السكة الحديدية، دخلنا في شارع جيريفيل الذي كان كبقية الشوارع الأخرى يكاد يخلو من الحركة في تلك الظهيرة القائظة، إلا سيارة تمر بأزيز محركها وسحسحة عجلاتها على الإسفلت". [1]

واللافت للانتباه في الرواية، هو لفظة الدّرب كثيرا و التي يقصد بها الرّاوي " الحي" وهو مسقط رأسه ومكان إقامته و حاييم، إذ لم يستعمل هذه اللفظة اعتباطا بل جاءت مشبعة بدلالات و معانٍ إيحائية تعبر عن التمسك بالأرض والهوية، والحياة الجماعية في أبسط صورها، وكذا الفئات البشرية التي ينتمي إليها هو ورفيقه، وما يمتلكانه من ثقافة و حضارة ، وهذا ينسحب على بقية الجزائريين أو بالأحرى الوطنيين بغض النظر عن العقيدة، وهو ما يثبته الرّاوي من خلال شخصية حاييم الذي يختلف عنه في الدّين ،و يماثله في الإنسانية والمواطنة، فكان همّهما المشترك هو الوطن بعيدا عن كل الاعتبارات و التناقضات ...إلخ

[1]- الرواية، ص 15.

ولأن "الحي من أكثر أسماء الأمكنة العربية التي تشير إلى معنى الحياة وحركتها الدائمة إلى درجة أن الحي اسم يشترك فيه المكان والإنسان والمطلق في المفردة، ويشترك فيه الإنسان والمكان في مفرده وجمعه معا". [1]

فقد جعل منه الراوي مسرحا لتنقلاته، وطيش الطّفولة و عبثه ولهو المشترك مع صديقه الحميم حاييم، فيقول: "ثم يدًا في يد، انعطفنا نحو الدّرب ،شرق دار البلدية ذات السّطح الأردوازي الأسود، عن يميننا فندق الشّرق في نهاية شارع إيزْلي، و غير بعيد عن داريْ عائلتينا، التجأنا إلى كوخ مهجور بلا سقف في منتهى الدرب حيث جلسنا على حجرتين تحت حرارة الشمس، و في انتظار أن تجف ملابسنا ، استعدنا ما كنا نتآمر به على ماكس باتيست ، زميلنا في المدرسة". [2]

يعود الراوي في موضع آخر إلى ذكر حي الدّرب، وتذكر الأوقات الحميمة التي قضاها في بيت جدته هنالك، حيث وجد كل العناية من قبل جدته إحتفاءًا بنجاحه، يقول: "تلك الأوقات الحميمة التي قضيتها مع جدّتي في بيتها بالدّرب، بعد عودتي مُتوّجاً بالنجاح، كانت من أمتع ما رسخ في ذاكرتي من نهاية دراستي في ثانوية معسكر". [3]

ويضيف قائلا عن جدته في نفس السياق دائما: "وأخرجت مواعين الفخار والملاعق الفضية من خزانة الأواني في المطبخ وكانت لا تخرجها إلاّ للخاصة من الضّيوف أو في مناسبة مهمّة تجتمع العائلة خلالها، وحضّرت لي للفطور والضحوية والغداء والعشوية والغشاء، مأكولاتي الحلوة اللذيذة الحارة والدّسمة، من بغرير ومسمّن ومبسّس ومقروض بالعسل". [4]

من خلال ما سبق، نتلمس تعلق الرّاوي بالدّرب، هذا الحيّ الذي تردد ذكره كثيرا في الرّواية وكان الحاضن لطفولته ومرحلة وفرحة من خلال بيت الجدة كذلك، وجاءت لفظة الدّرب، هذا الحيّ الذي تردد ذكره كثيرا في الرّواية وكان الحاضن لطفولته ومرحه وفرحه من خلال بيت الجدة كذلك، وجاءت لفظة الدّرب متعددة الدّلالات من خلال الوصف و السّرد الإيحائي، فعبر هذا المكان "الدّرب" عن انشراح نفسية الراوي و تمسكه بالأصل (الأرض) رغم المتغيرات وما تفرضه الظروف من متاهات الحياة ...، فجاء هذا المكان حاملا لشعرية خفية تعبر

[1]- مهدي عبيدي، جماليات المكان في ثلاثية حنامينة (حكاية بحار، الدقل، المرفأ البعيد)، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، ط 1، 2011، ص 106.

[2]- الرواية، ص 16.

[3]- الرواية، ص 51.

[4]- الرواية، ص 51.

عن بعد ثقافي اجتماعي ...يدعم ويكشف مرجعيات الرّاوي و رؤاه الاستشرافية، وهو ما زاد من إمكانية وواقعية أحداث الرّواية.

فبمجرد ذكر الأواني الفخارية و الملاعق الفضية و هي أدوات ثمينة، بالإضافة إلى أنواع الطّعام ووفرته، يقودنا إلى الوقوف على سمات المجتمع الجزائري عامة .

وتعتبر رموزا تُحيلنا إلى تصوّر بنية المجتمع و عاداته و تقاليده، فتثري بذلك الوظيفة الدلالية و الشعرية للمكان، ولعل هذا ما يوضحه قول (يُمنى العيد): "وهذه الأشياء والرموز وإن كانت من حيث المبدأ تمارس الوظيفة نفسها، وظيفة توليد الإيهام بواقعية عالم الرواية و الثاني بحقيقتها "فإن هذه الوظيفة تختلف في دلالاتها لأن الدلالة ترتبط بمظاهر الحياة الاجتماعية المحلية ،أي بمرجعية ثقافية خاصة". [1]

الراوي إذ كان يؤسس أحداث روايته من خلال مرجعيات متعددة مستغلا التاريخ و الثورة الجزائرية تحديدا لهيكلة عالم الرّواية، وذِكر الأمكنة التي كثّفت المعاني وقرّبتها و امتلكت ذهنية القارئ وضمنت قابلية التلقي، ومما يستوقفنا أيضا ونحن نقرأ الرّواية ،أسماء فرنسية لشوارع و أحياء جزائرية ،وهي إشارة تلميحية من الراوي إلى البعد التاريخي للمنطقة و تُعتبر كذلك شاهدا على الكولونياليين وغطرستهم، ومن هذه الأحياء، حي لامارينْ، يقول السارد :"قتل اليوم ،19-05-1959، في حي لامترينْ، رمياً بالرصاص، في حدود الساعة الخامسة والنّصف مساءا، المساعد حمّة زُكا الحارس الشَخصي للعقيد بيجار وأحد أشهر الحَرْكى المعروف بغطرسته وفضاضته وقسوته تجاه الأهالي". [2]

عبّر هذا الحي في موضع آخر عن حادثة تاريخية بارزة صاغها الرّاوي في أسلوب إخباري رسم من خلاله حقيقة ما كان يجري من أحداث دموية إبان الثورة، كما ساهم هذا الفضاء المفتوح (الحي) في إبراز ثنائيتين ضدّيتين هما الآخر المتمثل في المستعمر المحتل و الأنا المقَاوِم صاحب الأرض، من هنا نتلمس شعرية هذا المكان عن طريق تفكيك مضمرات الخطاب الرّوائي.

يضيف الراوي كذلك قائلا – في أسلوب يستقطب ذهن المتلقي: "بعض الزبائن تحدثوا في الصّيدلية عن الهلع الذي أعقب ذلك، وعن نوبة الانفعال التي أصابت العقيد بيجار نَفسَه لما بلغه الخبر، حيّ لا مارينْ كله لايزال مطوقا حتى هذه اللحظة " [3] ،ما يلاحظ إذن أن السّارد تمكن من جعل هذا المكان (حي لامارين) يسهم

---

[1]– يمنى العيد، فن الرواية العربية بين خصوصية الحكاية وتميز الخطاب، نقلا عن كتاب: وردة معلم، متخيل الفضاء في رواية إبراهيم الكوني، الوسام العربي للنشر والتوزيع، عنابة، الجزائر، ط 1، 2016، ص 185.

[2]– الرواية، ص 207.

[3]– الرواية، ص 207-208.

هو الآخر في بناء هذا المعمار السّردي فيخلق بفضل اللّغة الإيحائية شعرية مميزة إذ يعتبر الفضاء في الرّواية أحد المفاتيح التي تمكننا من الولوج إلى عالم الرواية وفك شفرات الخطاب.

بالإضافة إلى (حي لامارين) الذي إبتدعه الرّاوي لسرد الأحداث الروائية، نجد حيًّا آخرًا عبرّ الرّاوي بواسطته عن جولة المعاينة التي قام بها رفقة زليخة لهذه الأحياء، هو (حي الكاستور)، فمن خلال هذا المكان المفتوح الذي كانت له كذلك شعريته ورمزيته التي نستشفها من خلال المقاطع السّردية الواردة في الرّواية.

وقد استخدمه وأنتجه (الحبيب السائح) لنقل صورة حقيقية أو قريبة من الواقع تحمل دلالات تاريخية واجتماعية، وتعبّر أيضا عن الرؤى الاستشرافية للروائي وما يسعى إلى إيصاله بهذا الخطاب متعدد الأنساق المشبع بمرجّعيات متعددة يقول الشّارد: ".. وفي المنحدر، نحو حيّ الكاستور الأوروبي الذي في مدخله كانت دورية أخرى ترابط ظهر سور مقبرة اليهود – لم أتوقع أبدًا أني كنت سأزورها بعد ثلاثة أعوام". [1]

يضيف الراوي قائلا: ".. ونحن ندخل حي الكاستور، قالت زليخة، كأنها تحدّث نفسها، إنها طالما تمثّلت لها فيلاته، بقرميدها الأحمر، وسط الأشجار والأنهار، جنة كما تصورها كتب الحكايات السّاحرة! كان محرك سيارة السيتروان وحده يسمع في الشارع الرئيسي، غير الطويل الخالي تماما من المتاجر والمحلات، وكان يبدو مهجورًا لولا بعض المصاريع المفتوحة وظهور هذا الرّجل الهرم عند ذاك الباب أو تلك المرأة العجوز من تلك النافذة. وقالت: "وجود الأهالي به ظل محظورًا إلاّ لضرورة الحاجة إليهم لتأدية خدمةٍ مّا لأحد ساكنيه" [2]، هكذا إذن ينقلنا الرّاوي من خلال هذا المقطع السّردي إلى معايشة أحداث الحكي، فضلاً عن معرفة عينة من الأحياء فكان (حي الكاستور) نموذجاً عن غَطرسة الكولون وأسلوبهم العنصري تجاه الأهالي.

إضافة إلى الأحياء نجد الشوارع قد وظفها الروائي كذلك كأماكن مفتوحة تشهد حركية وتنقلا لمختلف الأطياف البشرية و الحوادث المختلفة ومن هنا جاءت تحمل رمزية و دلالات عديدة أوردها الرّوائي في لغة شعرية سلسة، فخلقت بذلك شعرية مكملة لما يرمي إليه (الحبيب السّائِح) عبر هذا الخطاب السردي المفتوح على العديد من القراءات والتأويلات الممكنة وفق مقاربات متعددة.

فالشوارع "أماكن انتقال ومرور نموذجية، فهي التي تشهد حركة الشخصيات وتشكل مسرحًا لغدوها ورواحها عندما تغادر أماكن إقامتها أو عملها". [3]

---

[1]– الرواية، ص 231.
[2]– الرواية، ص 231.
[3]– حسن بحراوي، مرجع سابق، ص 79.

تمكن الروائي من خلال هذه الميزة والإمكانية التي توفرها هذه الأماكن، من استغلالها في بناء وتسلسل أحداث الرواية، وبالتالي إنتاج جمالية شعرية مفارِقة و مفاهيم متنوعة. وبوقوفنا على بعض هذه الشوارع في الرواية نجدها قد كانت مختلفة مشحونة بالكثير من الرمزية صاغها الروائي لتكون وعاء وحاضنة لذكرياته مع حاييم مستغلا التاريخ كذلك كوسيلة لاستقطاب أكبر عدد من القراء، مخترقا أفق توقعهم في صورة جمالية متفردة.

وكمثال عن أحد الشوارع قول السارد: "كان ذلك مدهشا لنا! فقد قرأنا اِسمينا، لأول مرة في صحيفة اشترينا نسخة منها من كشك ساحة ريموند بوانكاري، وتناوبنا على تصفحها أكثر من مرّة، متوقفين عند المساحة المؤطرة في صفحتها الأخيرة وتبَادلنا نظرات الإعجاب إلى بعضنا، اشترينا نسخة ثانية من مقر صاحبها فافْييه في شارع كَمْبيطة". [1]

فما نستقرئه من تحليل وتفكيك هذا المقطع هو ما حققه أولاً هذا الشارع من تمكين السّارد من التعبير عن فرحه هو وصديقه حاييم بتفوقهما، فمن خلال هذا المكان المفتوح الذي أنتجه الروائي، تمكن من إيصال فكرة إمكانية التعايش رغم الاختلاف جاعلا من حاييم اليهودي دليلا لتحقيق خطابه، وهنا مكن الشعرية.

ويقول في موضع آخر: "في طريق عودتنا إلى الدرب، قد عبرنا السكة الحديدية، دخلنا في شارع جيريفيل الذي كان، كبقية الشوارع الأخرى، يكاد يخلو من الحركة في تلك الظهيرة القائظة، إلا سيارة تمر بأزيز محركها وسحسحة عجلاتها على الاسفلت، أو تلك المرأة– بقبعتها الاستوائية البيضاء تعبر، أو ذلك الرجل الواقف على الرصيف الآخر في ظل شجرة دلب يدخن سيجارة". [2]

جعل الراوي إذا من هذا الشارع ملجأ له ولصديقه حاييم وخلاصا لهما من قبضة (الفونسو باتيست) الذي كان يلاحقهما بسبب طيشهما وعفرتتهما كما قال الراوي نفسه.

نقل لنا البطل من خلال الشارع صورا مختلفة، منها أن هذا الشارع يخلو من الحركة في هذا الوقت (الظهيرة صيفا)، وبالتالي هذه المساحة شاسعة الهادئة، تتيح لأرسلان وصاحبه نوعا من الحرية وبالتالي الفسيحة النفسية، هذا ونجده يصور لنا كذلك طيش الطفولة ومخاطرتها. وما يتوارى أيضا خلف هذا المقطع السردي هو خلق هذه الأماكن المتنوعة المفتوحة وكيفية تصورها بلغة جميلة سلسة وكذلك جعلها فضاءات تدور فيها أحداث الرواية، فمن خلال هذه المساحات المكانية عمد التاريخ طريقا إلى إشراك شخصية حاييم، هذا الذي يحاول من خلاله بث وترسيخ مذهبه الخطابي الإنفتاحي ومن هذا تجلت الشعرية المكانية، لأن الراوي لا يأتي على ذكر

[1]- الرواية، ص 36.
[2]- الرواية، ص 15.

المكان على شكل هندسي يقحمه عبثا في أحداث السرد، بل يشركه في بناء وتماسك المنجز السردي لأنه عصر أساسي يكتسب شعريته من لغة الراوي وملكة التخييل، ومن هنا تتعدد جماليته من تعدد الخطاب الذي يكثفه، والروائي كان ينوع في خلق فضا عالمه السردي، فجاءت الشوارع كفضاء مفتوح تحمل دلالات متمايزة" زمانيا، فهذا الفضاء يتميز عادة بالحركية والتنوع الاجتماعي وبالتالي الثقافي، ولعل هذا ما يتضح أكثر في الدراسات الأنثروبولوجية.

والروائي (الحبيب السائح) ابتدع الشارع كمكان يضم كامل الأطياف الاجتماعية ليسرد به العديد من الأنساق الكامنة خلف الخطاب المباشر، ولعلنا – دون شك – نتفق مع قول حاييم: "الشارع أفصح وأصدق من كل لغة لأنه يظهر الفوارق صارخة". [1]

وفي هذا الشأن يأخذنا الشارد اسلان عن طريق الخيال تصور رؤية أحد شوارع الجزائر أيام دراسته بالجامعة هناك فيقول: "وأمام مخرج الجامعة الرئيسي، توقفت وطلبت متي أن أنظر إلى سير السيارات في شارع ميشلي وزحام الراجلين على رصيفيه من الأقدام السوداء والأوروبيين يكاد لا يظهر بينهم واحد من الأهالي في بداية مساء خلاله كانت الحركة قد بلغت ذروتها" [2] ، ينقل لنا الراوي في هذه المشهدية، شارع ميشلي كعينة لأحد شوارع الجزائر إبان الاستعمار. كما يذهب بكلامه هذا إلى معاني أعمق تدل على حالة الإقصاء والعنصرية التي يعرض لها الأهالي وهم أهل هذه الأرض من قبل الآخر وهو الكولونيال، كما يرمز كذلك في سياق هذا المقطع السردي الى رفض هذا الوضع من تهميش والتمييز العنصري الذي طالهم كطلبة كذلك وقوله: " توقفت وطلبت مني.." يعود على (سيلين) زميلته بالجامعة وهي شيوعية كما أوردها الراوي، وربما يقصد بهذا أن هذا التهميش يبدو جليا ومرفوضا أصلا، إنتبه له حتى غير الجزائريين أمثال (سيلين) ومن هذا الجانب كان للشارع في هذا المنجز السردي شعريته التي ساهمت في بناء الرواية جماليا ودلاليا.

نلاحظ أن الكاتب وهو نفسه الراوي قد وظف الشارع بصفته فضاءا مفتوحا تتجلى فيه مختلف الفوارق والتناقضات، فكان مسرحا لاحتواء أحداث السرد والمتغيرات الواردة داخل الرواية.

وبوقوفنا عند أحد الأمثلة التي تدل على توظيف الراوي لهذا الفضاء المكاني المتمثل في الشارع، نجده يأخذنا بلغته الآسرة وجمال الوصف والتجسيد، وقوة الخيال، ويضعنا في قلب الحدث ويشركنا في عالم الرواية من

---

[1]- الرواية، ص 163.

[2]- الرواية، ص 119.

مقطع سردي لآخر، فهو بذلك يكسب المتلقي فيأسره بطريقة فنية مدهشة مستفزة" ، ويدفعه ذلك إلى التساؤل والتأويل، فلا يطمئن ولا يستسلم لكل ما يقدمه الراوي في طبق لغوي.

بل يذهب إلى تفكيك شفرات النص وكشف مفاتيح الجمل السردية، وما تنطوي عليه من أبعاد علائقية تتواشج لتولد خطابا موازيا، ومن هنا تتحلى الشعرية.

يتحدث السارد عن فرحة الاستقلال ويذهب إلى نقل سورة مشهدية غاية في الرمزية، وجد من الشارع للتعبير عنها ما يحقق له الحرية الإنسانية، كون هذا الحيز يتيح له راحة نفسية وبالتالي حرية تنقل شخصيات الرواية وتشخيص انطباعاتهم، ومشارب ثقافتهم كما يصور لنا شوارع سعيدة بعد الإستفتاء وفوز نعم للاستقلال، وكيف كانت البيوت والفنادق....إلخ. تبدو لحاييم فيقول: "فشارعا كمبيطة وإيزلي ظهرا له خاليين، ونوافذ البيوت المطلة عليهما موصدة ، ظلاتها مطوية وشرفاتها فارغة صامتة، مثلها مثل فندق الشرق وإيزلي المغلقين ككشك ساحة ريموند بوانكاري..". [1]

استطاع المكان (الشارع) هنا أن يكثف لنا التاريخ، إذ بفضل لغة الراوي الشعرية وقوة ملكة خياله، تمكن من نقل وسرد هذه الأحداث البارزة" من تاريخ الجزائر وتكثيفها حتى ترسخ في ذهن المتلقي ويوهمه بواقعيتها من خلال أحداث الرواية والعناصر السردية المشكلة لها، وهنا مكمن جمالية وشعرية المكان في هذا العمل السردي، نجح (الحبيب السائح) إذا في تأثيث عالم (أنا وحاييم) عن طريق توظيف التاريخ ومسائلته فنيا، فأستغل التواريخ محافظا على ترتيبها الكرونولوجي متفاعلا مع أحداثها فنيا، دون المساس بها كقيمة حضارية وتاريخية تعبر عن ترسيخ البعد الوطني والهواياتي.

ونقرأ من المقطع السردي السابق، أن الراوي من خلال شخصية (حاييم) متمسك برؤيته الانفتاحية الاستشرافية، بضرورة تقبل الآخر وأهمية التعايش السلمي، كما يؤكد أن اليهود الجزائريين شاركوا في الثورة ومطلبهم هو السلم ولم يكونوا دعاة حرب رغم اختلاف الديانة وهو ما تجلى من شخصية الذي شارك في الثورة بطريقته الخاصة من أولها إلى آخرها.

ولم يقم بأي عمل إجرامي، وقد كان يتسنى له ذلك من مجرد خروجه إلى الشارع خاليا وهذه مجرد قراءة" وتحليل، ولكن ربما هذا ما كان يذهب إليه الراوي أيضا الذي يؤكد أن حاييم إنسان سلم لا إنسان حرب، وأن الهم المشترك هو الوطن.

[1]- الرواية، ص 214.

وفي موضع آخر وبفضل الشارع دائما يصور لنا الفرحة التي عمت كل الأماكن احتفالا بالاستقلال يقول أرسلان: "كانت الساعة التاسعة صباحا لما ظهرت الحشود المحتفلة، من بداية شارع إيزلي، سيارة مدنية من نوع سيتروان مكشوفة، مطوية السقف، مزينة الجوانب برايات النجمة والهلال، في خلفها زليخة واقفة بالزي العسكري تكرر ندائها، عبر ميكروفون تحمله بيدها، إفسحو الطريق، فأخذت تلك الحشود، مثل إنقلاب بحر تنزاح على الرصيفين، بينما كان يتناهى إلى سمعي بين نداء وآخر صوت من هنا وآخر من هناك "هذه زليخة بنت سي النظري! ...".[1]

ثم يضيف قائلا: "حاييم هو الذي كان يقود وكنت أنا الذي على يمينه، خلفنا سرية جنود بألبسة جبل يحملون أسلحتهم المختلفة في صفوف خماسية متراصة، موقعين بجزماتهم مارشة باهرة، منشدين بصوت فخم "من جبالنا طلع صوت الأحرار..." رددته الحناجر على الرصيفين في تناغم مثير للدموع "ينادينا للاستقلال" امتد إلى شارع كمبيطة الذي تفتق هو الآخر عن سرية ثانية تصعده بالنشيد نفسه، وسط الزغاريد والترديد، حتى تلاقيهم في دارة الساعة حيت اندمجتا ثم خاضتا شارع شارييه، نزولا نحو ثكنة محطة القطار.[2]

جسد لنا الراوي في هذين المقطعين السرديين، وعن طريق الشارع، صورا لهذه الفرحة العارمة بالاستقلال، وبفضل تمكنه بالتلاعب بالألفاظ وبراعة التخيل، استطاع أن يجعل من روايته بناءا فنيا وخطابيا متغرد اللغة ومتعدد الدلالات، إذ لكل مبدع شاريته الخاصة، هكذا إذن قدم العديد من الشوارع بصفتها أماكن مفتوحة تنعكس على نفسية الشخصيات تنثير الانبساط والراحة بالإضافة إلى أن هذا ما يعطي جماليته أكثر وهي ما تخلقه هذه الأماكن (الشوارع) من شعرية، تستشف من تحليل وتفكيك من مضمرات الخطاب، فالسارد قدم لنا الشارع في صورة لوحة فنية تحمل العديد من الرمزية كالاحتفال بالاستقلال ورفض الاستعمار، والتمسك بالوطن والهوية كذلك مشاركة الفئات الاجتماعية في الثورة والاستقلال يجسد البعد الوطني، ومن جهة أخرى يؤكد البطل على ثنائية الرجل والمرأة في الكفاح والوطنية الخالصة دون استثناء، فزليخة في الرواية هي واحد من جميلات الجزائر، وهي مثال يقتدى به في الشجاعة والنخوة والشرف، والوفاء للوطن والرجل، أما شخصية حاييم فتعكس البعد الإنساني والوطني أيضا إذ شارك في الثورة من خلال صيدليته التي كانت تقدم الأدوية والإسعافات للمرضي كما ساهم في الاحتفال إلى جانب أرسلان وزليخة، بفضل سيارته التي استعملها أسلان كأنهما شخص واحد فلم

[1]- الرواية، ص 217.
[2]- الرواية، ص 218.

يخل بها لأن الوطن هو القاسم المشترك بينهما، كذلك الإنسانية، ومنه فقد ساعدت المسلم البطل في الاحتفال، كما ساعدته في موضع آخر على تسيير أشغاله لما شغل متصب رئيس بلدية.

يسعى الراوي بطريقة أو بأخرى إلى تأكيد وطنية هذه الفئة من المجتمع (يهود الجزائر)، وذلك من خلال شخصية حاييم التي يراهن عليها ليبث عبرها خطابا حضريا والتعايش في ظل سماحة الأديان، ويحاول من زوايا خطابية متعددة ترسيخ مبدأ الحوار الثقافي والتعايش في ظل التعددية العقائدية ويهدف بطريقة غير مباشرة، وبخطوة" جريئة منها، إلى دحض ونسق الأطروحات القائلة بأن الدين هو السبب كل الأزمات.

2- المزرعة:

تعد المزرعة مكانا مفتوحا يمتاز بالشساعة، إذ تبعث الانشراح في النفس بفضل ما توفره من فرص المتعة والاستجمام، وذلك لمناظرها الطبيعية الجميلة، وبالعودة إلى الرواية نجد هذا الفضاء يتجلى كثيرا ويأخذ له موقعا في بناء الأحداث ويشكل بدوره شعرية النص الروائي بالإضافة إلى الأماكن الأخرى، ولهذا جعل الراوي من المزرعة علامة بارزة" للريف، فهي ترمز إلى الأصل والعزة" والهمة والألفة، وكذلك العادات والتقاليد المشتركة، ويبدو ذلك بقوله : " من جانبي، لم أجد ما أحدث به حاييم غير أيامي في المزرعة، إذ أستيقظ فجرا مع عثمان بقميصي المفتوح على صدري والمظلي على رأسي قدت حينها الجرار بمقطورته وحينا الحصادة" ، وزرعت المساحات مشيا فأحصيت وأنا أتصبب عرقا، أكياس القمح والحنطة والشعير وربطات التبن قبل أن يشحنها الخدم، ورويت ظمئي من القربة المعلقة إلى أحد فروع خروبة الحقل التي تناولت تحت ظلها طعامي مفترشا التراب". [1]

ويضيف في مقطع آخر قائلا: "ولكني كنتُ أيضاً أخبرتُ حاييم عن حفل نهاية موسم الحصاد. وقلت له إني تمنيتُ لو حاضراً معي ليشاهد فانتازيا الخيالّة ويأكل مشْويناً وسفة الكسكس بالعسل، كما يشتهيها. [2]

يبدو الرّاوي فخوراً بهذه المزرعة وخيراتها من خلال ما سبق ذكره، وقد وظف هذا الفضاء المفتوح الذي يحمل شحنة من الدلالات مثل العادات والتقاليد المشتركة لأهل الأرياف وكرمهم ونبلهم، وبساطة حياته من خلال الأطباق التي يفضلها هو كذلك، ويشترك فيها مع الرجل الجزائري وشهامته وشقائه منذ طفولته، كما يرمز بقوله إلى الرخاء وكرم الأرض الذي انعكس على أهلها .

[1]- الرواية، ص 42.

[2]- الرواية، ص 42.

وقد كان للمزرعة حضوراً مكثفاً في الرواية، وهي المكان الذي أتى منه الشارد نفسه فحقق نجاحاً باهراً رغم الإقصاء بسبب الاستعمار والعراقيل التي وضعها ومع ذلك كان التحدّي الإرادة، وقد عبر صوت الرّاوي عن الضمير الجمعي المقاوم لكل أشكال الهيمنة والاستعباد.

وترجمت المزرعة أيضا عادات وثقافة المجتمع الجزائري في التعبير عن الأفراح، إذ بها كان الاحتفال بنجاح أرسلان الذي يقول: "حين وصلنا المزرعة دخلت على أمّي في حجرتها فقامت لي في عباءتها الحريرية البيضاء ممسكة إلى الخلف شعرها الأسود بعصابة مذهّبة، مشرقة الوجه الأبيض، ....زغردت، أجل زغردتْ! كان ذلك أقوى من أي شيء آخر تعبيراً عن الفرح الأسمى" [1] ، ومنه كان هذا المكان فضاء لأفراح النجاح التي حققها أرسلان، وكذا زواجه الذي احتفل به هناك في مزرعة عائلة آل حنيفي ذات الأصالة والشرف والتاريخ.

3- الجبل:

يعد الجبل مكانا مفتوحاً، يحمل الكثير من الرّمزية، ولهذا أورده الروائي في نصّه، فأثار هذا الفضاء نقطة تحول بين قوتين متصارعتين، أصحاب الأرض والمستَعمرين. الذين يمثلون الآخر الظّالم، فمن خلاله تم القضاء على مرحلة تاريخية مستبدة تَمثلتْ في الاستعمار وسياسته العنصرية، والتأسيس لمرحلة جديدة هي الحرية وتحقيق الاستقلال.

هكذا إذًا جاء الجبل في نظر البطل! هو الخيار لإنهاء غطرسة الكولونيال، معنى ذلك لا بد من الثورة التي خاضوا غمارها مُرْغمين من أجل الوطن، لهذا التحق ببقية الجنود في الجبل متطوعاً للدفاع عن الوطن بكل وطنية ووفاء، مُعتبِرًا ذلك اختياراً لا إكراهاً، يقول: " إن كنت التحقت بالجبل، اختياراً لا إكراها ، لخصوص حرب تحرير لا لصنع بطولة، فإن ذلك لا يهد هدني بعزة نفْس فلا أعترف بأنه شأن جميع المقاتلين، مس شخصي المرضُ، كالصّداع والأنفلونزا والإسهال ومغص الأمعاء ونوبات المعدة، وشظف الحياة وقلة النوم والإرهاق خلال السّير، والخوف أثناء الاشتباكات التي أصبت في ثلاثة منها إصابات خفيفة في الرأس بفعل شظية، وفي الذراع والسّاق بالرصاص". [2]

عبّر أرسلان في هذا المقطع عن معاناة الجندي الجزائري في الجبال بسبب آلة الاستعمار وهمجيته، وهي صورة أسقطها على كل الجنود المرابطين لحماية الوطن المقاتلين والمقاومين بكل صموده في العالم عامة، والجزائر خاصّة، الرّافضين للظلم والاستعباد، ولم يكن الرجل وحده يدافع عن الوطن بل المرأة تجنّدت كذلك.

---

[1]- الرواية، ص 53.

[2]- الرواية، ص 175.

في الجبال دفاعاً عن الأرض والهوية، ومثال ذلك زليخة، هذه المرأة التي جعل منها الرّاوي صورة مثالية لكل حرائر الجزائر اللآئي عانين ويلات الاستعمار، في الجبال بكل شجاعة وصمود، رغم المعاناة القاسية، فيقول: "ذات مرة خلال توقف الفرقة لاستراحة في غابة تسمّى اللبّة وقد اشتغل كل جندي بشأنه، ذهبت زليخة وكان قد مضى عليها عام في الجبل، فقطعت غصناً من شجرة عرعار، وقشّرت بسكين لحاءَ التايدة من جذع صنوبرة ثم قعدت أرضا، فيما كنتُ أتابع حركاتها من حيث لا تنتبه إلي، ففكت سيور جزمة الباتوكاس، ونزعت جواربها، كاشفة عن قدميها الملتهبتين، بسبب سير ليلة كاملة بلا توقف بين الجبال وفي الوديان والأحراش حّد الإنهاك ". [1]

وفي مقطع آخر تقول زليخة: " لا أتذكر حين خرجت سوى أني وجدت سي فراجي عند الباب الخلفي مع خيط الاتصال الذي رافقني تحت المطر والظلام مشياً عبر مسلك في وادي الوكريف إلى غابة الكرارمة ومنها إلى جبل عين السلطان، حيث وجدتُك في انتظاري مع فوج من الجنود." [2]

ما يبدو جلياً للقراءة والاستنباط من خلال هذه المقتطفات السردية الواردة في الرّواية، هو أن الرّاوي جعل هذا المكان المفتوح مكانا وظيفيا يحمل شحنة من الدلالات المضمرة، فلم يَرد في السّرد مجرد تضاريس جغرافية وشكل هندسي فحسب، بل عبر عن نَسَقٍ فكري وآلية من آليات الخطاب الرافض للوضع الاستعماري، والتطلع إلى التغيير والحرّية، فالجبل إذًا يرمز إلى التمرد والثورة والجهاد والكفاح، فكان آلية من آليات المقاومة، كما أكد الراوي من خلاله على شرف المرأة الجزائرية وشجاعتها ووفائها للوطن والرجل معاً، ومساهمتها في الحرية والتمسك بالهوية.

ومن هذه الزاوية إذا، حقق هذا الفضاء المفتوح (الجبل) جمالية وشعرية مفارقة.

4- المدينة:

تجمع المدينة بوصفها مكانا مفتوحا العديد من الأطياف الاجتماعية على اختلاف فئاتهم وأحوالهم الاجتماعية والثقافية ، كما شمل على مختلف المرافق العامة ومصالح المجتمع، إذ هي عبارة عن "منظومة علاقات تختلف بها حياة البشر عن الحياة في البوادي والأرياف، أي منظومة هندسية واسعة متعددة الأشكال ذات وظيفة سوسيولوجية واقتصادية" [3]،ومن ثم تحقق الالتقاء والانفتاح، وبالتالي التبادل الثقافي والتواصل الاجتماعي،

[1]- الرواية، ص 177-178.
[2]- الرواية، ص 183.
[3]- مصطفى الكيلاني، الرواية والتأويل (سردية المعنى في الرواية العربية)، الأزمنة للنشر والتوزيع، الأردن، ط 1، 2009، ص 53.

وبالوقوف على توظيف المدينة في رواية (أنا وحاييم) نجد أن الحبيب السائح (الراوي) حقق بهذا المكان جمالية وفنية ، فضلا عن تكثيفه لدلالات اختزلت في هذه المدينة أو تلك، بقول أرسلان: "إثر عودتي إلى وهران، وقد أنهيت الفصل الدراسي الأول بدار المعلمين، أمسيت بدءا من نهاية عطلة الشتاء وحتى عشية عطلة الصيف، بعد تحضير الدروس أو تقويم أعمال طلبتي أو إعداد الفروض والاختبارات وتصحيحها أتناول العشاء مع زوجتي زليخة في غرفة الأكل، ثم أنعزل في المكتبة لمدة ساعتين بين العاشرة ومنتصف الليل، فأستحضر على دفتر لولبي كبير، أياما أخرى من تلك التي تركت أثر لها في وجداني... على إحساس بمرارة، وبغيض غالبا، على بداية سرقة تاريخية لما أثمرته تضحيات سبعة أعوام بالدم"[1]، ثم يضيف قائلا : "... انتقلنا إلى ثانوية مدينة معسكر البعيد بحوالي ثمانين كيلومترا إلى الشمال على طريق وهران، فمدينة سعيدة، بوابة الصحراء كما تسمى، لم يكن متاحا فيها خلال تلك السنين تعليم إكمالي وثانوي". [2]

ينطلق الراوي في السرد بحديثه عن عودته إلى وهران، حيث يقيم هو وزوجته زليخة، ثم يتحدث عن انعزاله في المكتبة واسترجاع ذكرياته مع حاييم، وأيام الدراسة وتنقلهما من مدينة إلى أخرى من أجل التعليم، وهو بهذا يشير بطريقة مضمرة إلى المعاناة التي تعرض لها الجزائريون والعراقيل التي واجهتهم في مسار حياتهم كلها، واحتكار التعليم والاقتصاد والتهميش الذي تبنته السياسة الاستعمارية، التي تسعى بمشروعها الاستيطاني إلى عزل المدن الجزائرية عن بعضها البعض وبالتالي التفرقة ونشر الفتن بين أبناء الشعب الواحد.

ولأن الأماكن المفتوحة تحاول "البحث في التحويلات الحاصلة في المجتمع، وفي العلاقات الإنسانية والاجتماعية ومدى تفاعلها مع المكان". [3]

فقد جعل الراوي من المدينة أداة يعبر بها عن الفوارق الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، لأنها الفضاء الشاسع الذي يجمع بين مختلف شرائح المجتمع: يقول أرسلان: "...وعند جدتي، لأن والدي طاوعها في أن أنتقل عندها لأدخل مدرسة المدينة مثل أبناء النصارى واليهود، عرفت في مدرسة جول فيري أقرانا لي لم يكن لي أن أعرفهم في القرية القريبة من مزرعتنا لو أني دخلت مدرستها.

إني أتذكر صديقي حاييم بن ميمون ولد صائغ الفضة وآية آكلي ولد صانع القراديش والمهدي بوشجرة ولد الإسكافي وماكس باتيست ولدا الكولون وزليخة النظري بنت الفقيه ومعلم القرآن التي كانت تتنافس مع

[1] - الرواية، ص 19.
[2] - الرواية، ص 19.
[3] - مهدي عبيدي، مرجع سابق، ص 95.

كولدا رافاييل بنت السارجان إلى درجة التكاره". [1]

يجسد لنا الروائي بهذا المقطع السردي دور المدينة بوصفها فضاءا مفتوحا، يتيح تقاطنه العديد من الأنشطة المتنوعة، والمرافق الهامة والخدمات المتنوعة.

كما يسرب من خلال توظيفه لهذا الفضاء حالة التهميش والعزلة التي طالت القرى والأرياف وحيازة أبناء الكولون لمرافق المدينة والتحكم في المؤسسات المختلفة على رأسها المدرسة ذات النظام الإقصائي لأبناء الأهالي، كذلك يضعنا الروائي من خلال تمكنه اللغوي وبراعة التصوير في عوالم هذه المدينة المتخيلة ذات مرحلة من مراحل التاريخ الجزائري، وهي عينة لبقية المدن وقت ذاك. فضلا على هذا نجد (الحبيب السائح) قد وفق كثيرا في توظيفه لهذا المكان وجسد به واقعا معاشا ودلالات خفية معقولة جدا في ظل السياسة الاستعمارية وانعكاساتها على المجالات الأخرى، والتي يأتي الروائي على ذكرها متخذا من التاريخ الحقيقي مادة لرصد مأساة الفرد الجزائري والعراقيل التي واجهته مقابل التعليم، كما أبدع في استغلال المدينة فنيا لبناء هذا العالم السردي، فمن خلال هذا الفضاء بين الفوارق المختلفة بين شرائح المجتمع، كما أشار ضمنيا إلى البنية المتنوعة التي تشتمل عليها المدينة المتكونة من أجناس سابقا، ما تعرض الراوي إلى ذكره أيضا من خلال السرد الاستذكاري لكسر رتابة وخطية الزمن السردي، وهذه قدرة إبداعية تحسب له، فصور لنا الراوي مختلف الحرف التي كانت سائدة أنا ذاك أيضا، يلمح إلى إمكانية التعايش بل وضرورته بغض النظر عن مختلف الأطياف البشرية، وفي مقطع آخر نجد البطل يصرح: "لابد من القول إني توقعت ، منذ ركبت القطار ، أن أجد مدينة الجزائر على مثالية اجتماعية وإنسانية أكثر مما هي عليه مدينتا سعيدة ومعسكر." [2]

يقرأ أرسلان بقوله هذا أن للجزائر (كمدينة) مكانة هامة وأكثر دليل احتضانها الجامعة كأعلى مؤسسة تعليمية علمية، لذلك انتقل إليها لإتمام تعليمية الجامعي، كما يستشف المتلقي أيضا من قوله ذلك، المقارنة الضمنية التي أقامها بين مدينة الجزائر ومدينتي سعيدة ومعسكر، والتي أسفرت عن خيبة أفق توقعه، إذ ألفى هذه المدينة أيضا تعبر عن حالات البأس والمعاناة التي يتعرض لها الأهالي في كل المدن الجزائرية ،كما ينقل صورة على الاضطهاد والتمييز العنصري الذي تمارسه آلة الكولون، والأجناس العرقية التي تقطن الجزائر.

[1] – الرواية، ص 108.
[2]– الرواية، ص 73.

تصرف الراوي إذا في المدينة كمكان هندسي شاسع، ليحولها داخل نصه السردي إلى بنية خطابية وأداة لإيصال رؤيته الخاصة والمتفردة في نصه هذا وبفضل بصمته اللغوية والفكرية المميزة أعطى للمدينة دلالات تجاوزت المساحة والفضاء الجغرافي ، لتصبح آلية خطابية وبذلك اكتست شعرية مفارقة في هذا الإبداع السردي

وما نخلص إليه من خلال الوقوف على شعرية كل من الأماكن المغلقة والأماكن المفتوحة، هو أن الراوي تعاطا معها بشكل حداثي تملك شغف المتلقي من بداية الرواية حتى نهايتها، وذلك لكثافة التدليل والرمزية التي أكسبها الروائي للمتخيل الفضائي في هذا العمل الإبداعي المتفرد المتمرد لغويا وموضوعاتي، فحقق ما يسمى بلذة النص، ومنه كانت شعرية وجمالية هذه الأمكنة قد ساهمت بقوة في انسجام وتناسق هذا البناء الروائي وإعطائه أبعادا دلالية متعددة تفتح للقارئ شهية التلقي وإمكانية التأويل والتفكيك.

ثانيا: أبعاد المكان في الرواية ودلالاته الشعرية :

يحقق المكان كعنصر أساسي من العناصر التي يقوم عليها البناء السردي، أبعادا دلالية مختلفة تكشف عوالم النص وتضمن للروائي من خلالها قابلية التلقي والتأثير، وبالتالي نجاح وفاعلية التركيبة الخطابية والرؤى التي تبناها وأسس لها إبداعيا، ومن هذا المنطلق، حاولنا رصد بعض الأبعاد الدلالية للمكان في رواية، (أنا وحاييم) والوقوف على شعريتها .

أ- البعد الإيديولوجي:

تتميز الكتابة الروائية المعاصرة بأبعاد إيديولوجية تساهم في تشكيل البنية الدلالية لأي عمل سردي، وهو ما يطلق علية النقاد المعاصرون بالأدب المؤدلج الذي يبنى على الرؤى الفكرية والعقائدية، ومن خلالها يكتسي شعريته، ومنه أحدث النقاد مصطلح الرواية المأدلجة.

ولعل هذا ما ينطبق على رواية (أنا وحاييم) إذ انطلق مبدعها من مرجعيات عديدة، إيديولوجية وتاريخية وثقافية وهو ما ينم عن تشبعه ثقافيا، وتاريخيا واجتماعيا، وبالتالي تنوع الروافد الفكرية التي صاغ على أساسها هذا المبنى السردي فجاءت روايته إذا متميزة سواء على مستوى الدلالة أو الطرح محققة بذلك تكاملا جماليا عن طريق ازدواجية المبنى والمعنى.

ومن الأمثلة التي يمكن أن نرصدها من الرواية والتي عبرت عن الأبعاد الإيديولوجية وحملت بذلك رمزية مكثفة، متجاوزة طبيعتها المكانية نجد بعض المقاطع السردية الذي أثرى بها الروائي عمله الفني هذا، فيقول:

"كنت مع حاييم، في كافيتيريا الجامعة نستمع لأحد أولئك الطلبة واقفا مثل الخطيب يتحدث عن الأهمية التاريخية لدحر النازية والانتقال إلى الصراع في المستعمرات الإمبريالية العالمية لأنها المهمة الأساسية".[1]

يدل هذا المقتطف السردي على ثقافة الروائي وثراء منظومته الفكرية، فجاءت روايته متشكلة من العديد من الإيديولوجيات، وبالتالي جعل من كافيتيريا الجامعة كما يبدو من جملته السردية آلية من آليات الخطاب الإيديولوجي، فأكسب هذا المكان شعرية بفضل ما نقله عبره من الصراعات بين الشرق والغرب، التي تغذيها الأنظمة العنصرية،كما يذكر كذلك من خلال الجامعة، نقاشاته مع الطلبة عن الدين والعلمانية والجودية والالتزام، .... وعن السلام والحب فمن خلال هذا الفضاء وتنوع مشارب ثقافة الراوي الذي اختار تخصص الفلسفة ليستدل به على قدرته على التحليل والنقاش لكل حكمة وعقلانية، من خلال هذا كله عرض هذه النقاشات ليعبر بها عن إيديولوجية ثقافية تحمل في طياتها رفض العنف والخطابات التي تحض على الكراهية.

ونجد الكاتب في موضع آخر، يعرض أفكاره أيضا فيتطرق لبعض القضايا الجوهرية مثل حرية الشعوب وضرورة العيش بكرامة، ويرفض السياسة الهمجية والإنسانية للكولون، ويرى في الثورة الحل الأخير للحفاظ على الوطن والهوية طالما أن كل المساعي السلمية قد فشلت مع سياسة المستعمر، يقول البطل أرسلان في هذا المقطع: "أعتقد أن الإمبريالية بالنسبة للشعوب المستعمرة، هي النظام الاستعماري الذي تدعمه الشركات والبنوك الرأسمالية وكبار الكولون. وتحميه الآلة العسكرية ومنظومة القوانين الردعية ضد أي محاولة لزعزعة أمره الواقع. إنه يكفي لنرى ذلك أن نلتفت من حولنا. فماذا يبقى، إذا لتلك الشعوب غير مقاومته بكل الوسائل لتقرير مصيرها وبسط سيادتها على خيرات أراضيها! قلت مثل خطيب أنا أيضا." [2]

يعبر الكاتب من خلال كلامه هذا، عن رؤيته الخاصة ويعطي أمثلة ويقدم حلولا منطقية مقترحة لزعزعة منظومة الاستعمار وتحقيق السيادة وهو يمثل لموقفه هذا الضمير الجمعي سواء للشعب الجزائري أو للإنسان في كافة بقاع العالم فهو يرفض عنصرية هذه الأنظمة الاقتصادية والسياسية التي تعتمد على القوة العسكرية، لفرض الهيمنة، محاولا بذلك كسر الصورة النمطية للاستعمار، يتخذ الروائي إذا بشكل وأكثر رمزية، عنصر المكان ليكثف به عديد الرؤى والقضايا الجديدة بالطرح ، فتعددت بذلك أبعاده الشعرية فأسس جماليا عن طريق لغة غاية في الشاعرية ، لخطابه الداعي إلى الحوار الحضاري والتعايش السلمي، ومحاربة خطاباته الكراهية من خلال الحوار والتبادل الثقافي.

---

[1]- الرواية، ص 78-79.

[2]- الرواية، ص 79.

بالإضافة إلى هذا استطاع الكاتب كذلك أن يجعل من بعض أمكنة الرواية آلية إيديولوجية لمناهضة سياسة الاستعمار، فجعل من بيت الجدة، هذا المكان المغلق الذي أبدعه في هذا المنجز السردي، صورة للمقاومة والدفاع عن الوطن فحمل هذا المكان رمزية وشعرية زادت من دلالة النص الروائي. ولأن سرية التخطيط للثورة لا يكون مكانه الشارع حتما، بل لابد من مكان أكثر ثقة وأكثر أمان، لذلك اختار الراوي بيت الجدة مقرا للاجتماع السري، فيقول على لسان أحد أعضاء الخلية السرية: " اخترنا هذا المكان لاجتماعنا لأنه دار عمران وأمان" [1] ، ثم يضيف قائلا: "…. كنت أشعر أني أرمي خطواتي الأخيرة في مدينة قطعت معها ذهنيا منذ أن جاءني قبل ساعات، سيف الراجي وطرق عليا من غير ميعاد ففتحت له فقال: " سيكونون ثلاثة يمرون عليك هنا في التاسعة ، عليك أن لا تصبح هنا غدا" وهو ينصرف احتل ذهني وجه زليخة تقلب المسدس الذي كنت سلمتها إياه بأمر من سي فراجي في نهاية اجتماع الخلية الأخير في بيت جدتي بالدرب". [2]

نجح الروائي بتوظيفه لهذا المكان ، وذلك لما أكسبه من شعرية ساهمت في بناء الشكل العام للحكي ، فعن طريق بيت الجدة بث بعدا وطنيا وكذلك وسياسيا ، وإذ ما يمكن قراءته هو أن المبدع عبر بيت الجدة عن الأمان والسرية التي تمكن الثوار من إجراء الاجتماعات الهامة، والتخطيط لكفاح المسلح ضد الفرنسيين لأن الجدة تدل على الحكي وبالتالي الذاكرة الجمعية، (التاريخ) كما ترمز كذلك إلى الأصالة والهوية الجزائرية بما فيها العادات والتقاليد والأعراف المشتركة، ومنه كانت اجتماعات الثوار تدل على رفض الواقع الاستعماري والتصدي للهجمات الكولونيالية من خلال ذلك البيت وعليه يصير المكان هنا أي بيت الجدة. عبارة عن إيديولوجية في الخطاب المضاد ليصبح هذا الجزء إذا أي البيت، يعبر عن الكل المتمثل في الوطن.

ب– البعد النفسي:

"وهو يدور حول تحديد مشاعر (الشخصيات نفور، قبول، انتماء، تعاطف.. الخ) إزاء الأماكن المختلفة". [3]

ونجد على هذا الأساس أن صاحب الرواية محل الدراسة تمكن من إبراز علاقة التأثر والتأثير، فبدأ انعكاس أماكن الرواية جليا في طباع الشخصيات ومشاعرهم النفسية، فنجد الروائي نفسه يسترجع ذكرياته مع حاييم، فينطلق من إسقاط ما انتابه من أحاسيس على بيت صديقه، فيعود بالذكرى الحزينة إلى علاقته مع حاييم، وما ألفه في بيته منذ الصبا فيقول بنبرة يملأها الشوق والحنين: "… فككتُ كفي عن قطعة المعدن الباردة المعلقة في حلق صغير بملصق مكتوب عليه بخط اليد "مفتاح الدار"، المفتاح الذي أولجه عين القفل وأدرته دورتين، ثم دخلت

[1] – الرواية، ص 135.

[2] – الرواية، ص 169-170.

[3] – محمد السيد اسماعيل، بناء فضاء المكان في القصة العربية القصيرة، دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة، ط 1، 2002.

فانتابني مرة أخرى شعور، لم ينتبني حتى في يوم عودتي إلى دار جدتي بعد وفاتها ، ..." [1] ، يعبر الراوي إذا من خلال هذا المقطع عن مدى حزنه والنوستالجيا التي تملكته وهو يلج بيت رفيق الدرب حاييم ليصنع بهذه المشهدية المعبرة شعوريا، دلالة نفسيا على حميمية العلاقة التي تجمعه والصديق حاييم فيؤثر في المتلقي ويدفعه لا شعوريا إلى المشاركة في الإحساس والانفعال، وما يمكن قوله، هو أن الكاتب استطاع بفضل قوة التخيل والجمال اللغة ، خلق هذه الفضاءات وتفاعلها مع الشخصيات التي ابتدعها، وأعطاها طابع نفسية وحالات شعورية متباينة، وهنا تكمن قوة الإبداع الفني وانبثاق للشعرية في أبها صورها. ومن الأمثلة الأخرى، عن البعد النفسي للمكان نجد ما صوره الراوي في حواره مع صديقه عن الثانوية ذات النظام الداخلي، وقساوة حارسها (مسيو ويل)، وفرحهما بالتخلص منها بعد النجاح فيقول: "تصوّر! سبع سنين في هذه الداخلية".

– التي تشبه الثكنة!

– بل مصحة أمراض عقلية!

آن لنا أن نحرق قمصانها الكابحة!" [2]

لعل أول ما نستحضره من خلال هذا المقطع السردي هو الثنائية المتعارضة (الألفة / اللا ألفة) التي تحدث عنها غاستون باشلار في كتابه جماليات المكان، إذ يمكن اعتبار هذه الثانوية من الأماكن التي تتسم باللا ألفة وذلك لما عرفه البطل وصديقه فيها من ضيق واضطهاد، لذا كانت تثير في نفسيهما النفور واللا ألفة، فمن خلال هذه الشخصيات لم تسطع الانسجام مع القوانين الظالمة والعنصرية ، فخلق هذا المكان نوعا من النفور وعدم الجاذبية ، لأن أماكن الألفة عادة تشعرنا بالطمأنينة والهناء يقول باشلار: "ولهذا فلسوف أضع ثقلي بقوة الجذب التي تتميز بها كل مناطق الألفة، لا يوجد ألفة حقيقية منفرة، كل مناطق الألفة موسومة بالجاذبية، وجودها هو الوجود الهنيء." [3]

فهذا الحيز المكاني ليس محل جذب إذا، وعن طريقه صور لنا الراوي المعاملات القاسية التي عانى منها هو وحاييم، والتي هي دليل على السياسة الفرنسية في كافة الأماكن ومراكز التعليم خاصة. وهذا ما عزز شعورية هذا الفضاء المكاني وساهم في بناء الإطار السردي.

هنالك مثال آخر كذلك عن البعد النفسي للمكان في هذه الرواية وهو ما انعكس على نفسية شخصيات الرواية ويجعلنا نتعاطف معها وهذه هي خاصية البعد النفسي، إذ من طبيعته التأثير في النفسية ويؤثر

[1] – الرواية، ص 11.

[2] – الرواية، ص 48.

[3] – غاستون باشلار، مرجع سابق، ص 61.

المكان بهذه الميزة على الشخصيات الروائية "فأكثر الأمور بساطة تطبع في النفس علامة يصعب محوها على مر السنين" [1]، كما أن المكان "لا يتوقف حضوره على المستوى الحسي وإنما يتغلل عميقا في الكائن الإنساني، حافرا مسارات وأخاديد غائرة في مستويات الذات المختلفة ليصبح جزءا صميما منها". [2]

ونجد الروائي إضافة إلى هذا، تمكن من تجسيد الحالات النفسية في الرواية، وبالتالي تحقق البعد النفسي وذلك عن طريق قدرته السردية العالية ولغته الشاعرية الإيحائية، التي عبرت بقوة عن الدلالات الرمزية للمكان، ومنه محاكات الواقع ومقاربته بطريقة فنية تجلت عبرها الشعرية المكانية، بحيث "يمكن للمكان الكشف عن نفسية البطل والمساهمة في نموه وتطوره، وقد سببا في تغيير حياته ووجهات نظره مما يساعدنا على فهم بيئاتهم وأحداثها"[3]

ويضيف الراوي في مقطع آخرا من الرواية يصور فيه بقوة ما يعتريه من مشاعر وأحاسيس بحسب المكان المتواجد فيه فيقول: " غير أن ما سبب لي وحاييم الصدمة النفسية الأخرى، في اليوم التالي لما قصدنا إقامة ثانية تاجر غرفها عن طريق لجنة الخدمات المدرسية والجامعية هو ما وجهنا اعلى مدخلها كانت اللافتة البيضاء تعلن بالخط الأحمر.

"هنا لا يقبل الانديجان"

كلما تذكرتها، كما في هذه الليلة، أحسست رضوض وجداني ثارت من جديد، فتألمت مرة أخرى وأقني كيف يكره الإنسانُ الإنسان، كيف ينزله إلى حضيض الاحتقار، فلا يسويه، في طعامه وشرابه، حتى مع الحيوانات – سيلين شوفالييه نفسها كانت حدثت مرة عن ولع عائلتها بتربية الكلاب الحضن والبولدوغ وعن الأطعمة التي تحرس على اختيارها لها من المحلات المتخصصة". [4]

يضعنا في هذه الفقرة السردية في خضم شعور نفسي صادق، رمز من خلاله إلى اللا مساواة والهيمنة الكلية للجهاز الاستعماري وقوانينه الظالمة تجاه الجزائريين وخاصة الطلبة. كذلك عبر أرسلان من خلال هذا المكان عن العنصرية والتمييز القاصي الذي تعرض له هو وصديقه وما أثار في نفسيهما صدمة ورضوض كما قال، ليشن بذلك تماثل الشعور بينه وبين حاييم وأنه لا مجال إذا للاختلاف أو بالأحرى الدين، ليس عنصر تفرقة، وتنوعه يعتبر قيمة في المعيار الحضاري وفق توجه الروائي. فضلا على هذا عبر الروائي بشكل صريح، عن العنصرية والتهميش المسلط على الأهالي وذلك عن طريق عبارة "هنا لا يقبل الأندجان" والتي تحمل في طياتها أساس السياسة الفرنسية في الجزائر، ويذهب البطل إلى ترسيخ قيمة إنسانية ودعوة ضمنية إلى المساواة والتآخي من خلال

[1]- مهدي عبيدي، مرجع سابق، ص 61.
[2]- حسين خالد حسين، شعرية المكان في الرواية الجديدة، مؤسسة اليمامة، الرياض، ط 1، 2000، ص 46.
[3]- الشريف حبيلة، مكونات الخطاب السردي (مفاهيم نظرية)، عالم الكتب الحديثة، الأردن، ط 1، 2011، ص 45.
[4]- الرواية، ص 74.

استنكاره كراهية الإنسان لأخيه الإنسان وتفضيل بعض الحيوانات عليه، ويضرب مثلا بما قالته صديقته سيلين التي ضلت تسانده في آرائه كما قال، ليشير بذلك إلى النسق الإيديولوجي المشترك، كما يدعم موقفه الإنساني أيضا بتوجه صديقته الشيوعية هذه. وما يتسم به حزبها من مبادئ داعية إلى تحرير الشعوب، ويشير أيضا إلى التعاطف السياسي، وبالتالي إقناع المتلقي بالقيمة الإنسانية للرواية بأكملها، نتوصل إلى رصد الشعرية المكانية والدلالات الإيحائية التي أسهمت في تسلسل أحداث الرواية وإبراز قيمتها الإنسانية، وهذا التجلي للبعد النفسي للمكان أي مدى تأثيره على شخصيات الرواية وتفاعلها معه.

ج- البعد الديني:

يحضر هذا البعد في الأعمال الفنية، ويعبر به عن الاختلاف في التوجهات والآراء، وما تحققه هذه التباينات من قيمة جمالية ودلالية – إن جاز التعبير – ومنه فإشكالية الأديان مثيرة للجدل، وتطرح كثيرا في السرد المعاصر، وفي هذا العمل السردي محل الدراسة، نلحظ أن الكاتب تطرق إلى عنصر الدين بشكل طفيف ليثبت من خلاله أن اختلافه لم يكن أبدا.

بسبب تفرقة بينه وبين صديقه حاييم الذي يقدمه في كل مرة مؤكدا على التشابه بينهما حد التطابق، ساعيا بذلك إلى ترسيخ مبدأ التآخي والتسامح الديني وتقبل الاختلاف والانفتاح على الآخر فتعايش مع حاييم اليهودي بكل انسانية وسماحة دينية، وكان القاسم المشترك بينهما هو الوطن، لان المواطنة في حد ذاتها قيمة حضارية جعل الراوي من حاييم نموذجا ناجحا للتعايش السلمي والانفتاح الحضارية.

ومن الأمثلة الواردة في الرواية التي تجسد البعد الديني قول الكاتب: " وها هي غرفة أبويه، وقد صارت غرفة نومه بعد وفاتهما، .... بسريرها الكبير بصوانيه، على أحدهما أبا جورة وعلى الآخر المينوراه سباعي المواسير وكتاب التوراة بتجليد بني غامق". [1]

ما يمكن ان نقف عنده من خلال هذا المقطع السردي هو أن الكاتب تطرق إلى الدين بشكل موضوعي ، واطلع المتلقي من خلال هذه الغرفة (غرفة حاييم)، على وفاء هذا الأخير لعقيدته، كما يشير الروائي أيضا إلى أن ما يجمعه وصديقه يتجاوز العقيدة وأنها ليست محل جدال وخلاف بينهما والدليل ذكره لبيت حاييم ووصفه لغرفته بكثير من الحنين والأسى، كما تطرق لبعض العبارات الدالة على عقيدة اليهود خاصة كتاب التوراة، ولم نلحظ أي نفوره أو عنصرية، وهو يريد بذلك إقناع المتلقي إلى إمكانية التعايش مع الآخر، وأن الاختلاف الديني يدخل ضمن حرية المعتقد، وأنه ليس سببا لرفض الآخر، بل يمكن استغلاله في بناء الحضارة والتبادل الثقافي.

[1]- الرواية، ص 12.

يصور الروائي كذلك الثقافة الإسلامية للمجتمع الجزائري وتمسكه بالدين، ويقدم من خلاله صورة شاملة لكافة شبان الجزائر، فبالإضافة إلى الاجتهاد في تحصيل العلم، والجهاد من أجل انتشال الوطن من براثن الاستعمار والتخلف. كذلك هو متمسك بدينه الإسلامي، يقول أرسلان واصفا استعداده إلى الجامعة بمدينة الجزائر لا كمال تعليمه إذ أعطته أمه مصحفا ..." رفعت بِيُمنَاها ما كانت تضعه جنب ركبتها وقدمته لي بيديها معا، مرتعشة الصوت، مقاومة دمعتها "هذا سترك"!

كان مصحف على طبعة الثعالبية لعام 1935، بخط مغربي لا يقرأ به أهل المشرق ،..." [1]

ويضيف الكاتب كذلك حديثه عن الدين، وهو يشير إليه بطريقة ضمنية في العديد من صفحات الرواية. فيعقد شبه مقارنة بينه وبين صديقه حاييم من خلال ذكر تعاليم اليهودية والإسلام في إشارة سريعة ، فيقول: "... حتى إذا عدت إلى غرفة النوم وجدت حاييم دخل سريره وبين يديه كتاب التوراة الذي غالبا ما يقرأ منه حين يكون في حالات من الحزن أو التوتر.

ابتسمت، قلت في داخلي إنها ليلة مقدسة. كنت أعرف أن حاييم غسل يديه ووجهه قبل أخذه كتابه. دخلت الحمام فتوضأت وعدت فأنزلت من دولاب الملابس مصحفي هدية والدتي الثمينة..". [2]

يقرر الراوي في هذا المقطع على الحرية والاحترام المتبادل بينه وبين صديقه فيما يتعلق بالدين وأن الصداقة والمحبة الإنسانية فوق كل اعتبار وأن الوطن هو الجامع بينهما، لأن المواطنة قيمة حضارية، كما يضيف السارد في نفس السياق: "... وفي سريري فتحت على الصفحات الأولى. قرأت بصمت لدقائق قبل أن يشغلني أن لم نكن، أنا وحاييم، تجاذبنا حديثا حول ما نقرأه من مقدس! إلا ما تعلق، من حين إلى آخر، بقصص الأنبياء وبالخلق والموت والمقابر أيضا. ولا وقع يوما أن حاول أحدنا رد الآخر عن دينه، واجدين ذلك من سلوك عائلتينا ومن غيرهما من المتجاورين من المسلمين واليهود في الدرب خاصة". [3]

يصور لنا الكاتب في هذه القطعة السردية علاقته المتينة مع حاييم، إذ لم يحاول كل منهما سحب الآخر عن دينه، بل كان الحوار بينهما ينم عن وعي وثقافة، هذا ويعترف أن كل من اليهود والمسلمين تعايشوا في سلم وانفتاح دون أن يكون الدين تفرقة أو خصومة.

[1]- الرواية، ص 56-57.

[2]- الرواية، ص 123.

[3]- الرواية، ص 123.

يتطرق أرسلان في موضع آخر كذلك إلى الدين عند زيارة مقبرة اليهود ووقوفه عند قبر حاييم قائلا: "ليطب مقامك في مثواك الأخير في بيت علمين هذا! ..." [1] إذ "بيت علمين" كلمة عبرية تعني بيت الأبدية أو المقبرة. إذ من خلال هذا نستكشف وفاء الكاتب للصديق حاييم واحترام مبادئ دينه، فدفن بمقبرة اليهود وأقيمت مراسم الدفن كما تفتضيه ديانته، ليثبت الراوي من خلال هذا البعد الديني قابلية التعايش ولو اختلفنا دينيا وجنسيا. وأهمية الانفتاح على الآخر وأن الدين لم يكن يوما سببا لصراع الحضارات.

د- البعد الاجتماعي :

وهو البعد الذي يتبدى في العلاقات الاجتماعية الرابطة بين «الشخصيات» وقيمهم وتقاليدهم وطبائعهم ومستوى معيشتهم وما يعترضهم من مشكلات وقضايا.

وقد تجلى هذا البعد في الرواية محل دراستنا، بشكل ساهم بقوة في إيصال مدلولات إيحائية مصورة للمجتمع الجزائري عن كثب، في فترات تاريخية بارزة، وهي سيمات تطبع هذا المجتمع الأصيل المعروف بالتكافل والتمسك بالعادات والتقاليد، وبالتالي ترسيخ الهوية.

كما ينقل لنا الراوي صورة إيجابية عن التعايش الحميمي بين عائلته وعائلة حاييم اليهودية. وهي نموذج ناجح عن التعايش السلمي والانفتاح على الآخر وتقبله. ونبذ الكراهية، ليثبت الكاتب مرة أخرى ودائما أن اختلاف الدين ليس عائقا، ويمكن تجاوزه بفضل الوعي ونبذ الجهل، وبالتالي بناء أنساق فكرية قائمة على الدعوة إلى التسامح الديني والحوار الثقافي ونسف خطابات الكراهية القائلة بان الدين سب الحروب والأزمات والصدام الحضاري، ومن أمثلة هذا البعد، والذي يبدو جليا في روايتنا قول أرسلان: "...أن عائلتي مثل عائلة حاييم لا تأكلان من تلك اللحوم ...." [2] ، فالكاتب هنا أوضح العلاقة الوطيدة بين العائلتين، والعادات المشتركة في طبيعة الأكل، فحاييم رغم اختلاف ديانته إلا أنه يتشابه مع أرسلان المسلم، الذي رفض تناول الوجبات في الداخلية التابعة للثانوية، مع بقية التلاميذ من الأوربيين والأقدام السوداء ، وفضل تناولها مع حاييم بن ميمون، وهنا تبرز هذه العلاقة الاجتماعية المتشابهة، إذ تحمل هذه الجملة السردية التي صرح بها السارد شعرية ودلالات خفية ترمز إلى معنى أعمق من مثل أخلاقيات هذا الآخر المغيب المتمثل في فئة اليهود -يهود الجزائر تحديدا- وطبيعة البنية المجتمعية التي شكلوها والتي لا تختلف تقريبا عن المجتمع المسلم ، كذلك يسعى الراوي من خلال البطل حاييم إلى نفض الغبار عن هذه الفئة المهمشة والتي ينظر إليها سلبيا دائما، وإعادة

---

[1]- الرواية، ص 331.

[2]- محمد السيد إسماعيل، مرجع سابق، ص 20-21.

الاعتبار إليها كونها شاركت في ثورة تحرير الجزائر، وليس هذا فحسب بل يتم خطابه السردي هذا، لكونه دعوى إلى الانفتاح على الآخر والتعايش السلمي معه وكمثال آخر على ما تشتمل عليه الرواية من بعد اجتماعي نجد أرسلان وهو ابن القايد، وواحد من الأهالي ميسور الحال . والذي عانى من عنصرية وبطش (مسيو ويل) حارس الداخلية يقول: " ومهما يكن من أمر، فإن مسيو ويل كان يعرف بينه وبين نفسه أيضا، أن التحاق أراب مثلي، يواجه بلا تهيب، وهذا بلا شك ما أقربه لنفسه، لا يكون إلا استثنائيا، إما لجاه كبير تتمتع به أسرتي ولما لها بالتأكيد! وإما لقربها من الإدارة الفرنسية لخدمتها التي لا تزال تقدمها لها، فوالدي، بصفة القايد التي يتمتع بها، كان بين هذا وذاك". [1]

يلاحظ المتلقي من خلال قول الكاتب، أن لابن القايد على ما يبدو مكانة اجتماعية تحددها صفة والده وقربه من الإدارة الفرنسية، ومع ذلك لم يسلم من ملاحقة واحتقار مسيو ويل له، وهو ما يعاني منه أيضا بقية التلاميذ من الأهالي فهذه الشخصية المتمثلة في (مسيو ويل) شخصية عدوانية، استطاع الكاتب أن يحملها دلالات رامزة. عبرت عنها لغة الشعرية فجسد من خلالها أبعادا شتى خاصة الاجتماعية، إذ تمثل هذه الشخصية الآخر المحتل، على عكس حاييم الذي جسد الآخر المواطن، الذي تعرض هو كذلك إلى الاستفزاز والظلم من قبل (مسيو ويل) فمنه حتى من تكلم اللهجة العربية، وهي إشارة من الروائي إلى المحتمل هدفه طمس الهوية والقضاء على كل مقوماتها خاصة الإسلام، "ولكن قل لي، ما طبيعة هذه العلاقة التي تربطك بمسلم غير فرنسي! أنت حاييم بنميمون مواطن فرنسي أعلى من أرسلان حنيفي درجة! فكيف تقبل مصاحبة أنديجان مثله والحديث إليه بتلك اللهجة كأنه أحد أفراد عائلتك!" [2] ، نقل لنا الراوي من خلال هذا المقطع السردي المنسوب للحارس (ويل) مدى عنصريته وغطرسته، وهذا ما تتصف به ذهنية الآخر المستدمر، المبنية على التمييز العنصري إذ معيار المفاضلة عنده ينفي إنسانية الإنسان وهو بذلك باطل بالمنطق.

وخلافا لذلك، نجد شخصية حاييم أكثر إنسانية وانفتاحا على الآخر، بقول أرسلان: "... وانتظر من حاييم نفيا أو وعدا غير أنه رد عليه ببداهة: " لا أشعر أني فرنسي، وأرسلان مثل أخي". [3]

يذهب الكاتب من خلال عبارة حاييم الموغلة في الإنسانية والمواطنة إلى إثبات مسعاه الخطابي المتمثل في الانفتاح على الثقافات الأخرى والتشارك الحضاري الإنساني بالدرجة الأولى، كما يبرز العلاقة بينه وبين حاييم التي أساسها الأخوة والإنسانية.

[1]– الرواية، ص 28.

[2] – الرواية، ص 34.

[3]– الرواية، ص 35.

نجد كذلك ملمحا آخر للبعد الاجتماعي تمثل في العادات المشتركة بين عائلتي أرسلان وحاييم، والعلاقة الاجتماعية الطيبة بينهما، وهو ما يقول عنه أرسلان إذ أعدت لهما جدته أنواع من الطعام بمناسبة نجاحهما: "يومئذ، تغدى حاييم معي في بيت جدتي ربيعة. وكان الغداء طبقين من دجاج محمر وبطاطا مقلية وكسكس بالزيت والرايب حضرتهما بيديها خصيصا لنا بالمناسبة. وتعشيت مع حاييم في بيتهم عشاء من طبق زيتون بلحم الأرنب حضرته أمه زهيرة "[1]. كما يؤكد الراوي كذلك على التشابه الكبير بينه وحاييم حتى في اللباس. وهو يصور التشابه في التقاليد إذ يهدف ذلك إلى أن الإنسانية هي أساس الاستمرارية والتعايش السمح بغض النظر عن الدين المختلف. يصرح أرسلان: "ولم يكن حاييم مختلفا عني في اللباس إلا بالألوان تقريبا. ذلك لأنه بقدر ما لازمتنا رغبة، لدواع ذوق فصول السنة ويفرضه جوها، تجنبا، من غير أن يخبر أحدنا الآخر، أن نخرج أو نسافر بالألوان نفسها."

عجبا لنا في ذلك العمر! "[2]. هذا ويضيف أرسلان عن حاييم واصفا طبعه: "حاييم، برغم ما يظهر عليه من تحفظ، لدى من لم يعرفه عن قرب كما عرفته، اختزن، مثل كنز، روحا ظريفة ومليحة، فقد ظل سابقا إلى إثارة ما يدخل علي سرورا "[3]، تميزت شخصيته إذا باللطافة وسماحة طبعه وعدم تعصبه الديني.

هناك جانب اجتماعي آخر في هذه الرواية، يتجلى في العلاقة بين الكاتب ووالده: " أجده الآن أمرا غريبا أن يكون ما يميز العلاقة بيني وبين والدي هو أنني لم أفاته يوما في شأن من شؤون حياتي الخاصة، إن حدثني، من جانبه، في أمر ما، وهو نادر، فلم يعدو حدود شؤون المزرعة، ولو أنه ظل في خصوص دراسي، يثق ثقة مطلقة بأنني لن أخيبه. كنت أعلم، حتى قبل أن تسرب لي والدتي بعض ذلك، أنه ما انفك يتباهى بي هذا المجلس أو ذاك. وكان –وأنا أعرف هذا أيضا– يبغي أن يثبت لغيره من الأقدام السوداء والأوربيين أنفسهم، قبل الميسورين من الأهالي والمتقربين من الإدارة الفرنسية والقياد مثله، أن منزلته يعليها أيضا أن له من دمه نجلا لم تلده أزواجهم".[4]

يستحضر الراوي هنا الصورة النمطية للقياد عموما المعروفين بصرامتهم وقربهم من الإدارة الفرنسية، وهو بفضل لغته الشاعرية وثقافته الشاسعة استغل الحضور التاريخي لفئة القياد ومدى تأثيرهم اجتماعيا، فنجده يصف لنا معاملاتهم انطلاقا من علاقته مع والده الذي يبدو صارما ومنشغلا كثيرا بشؤون المزرعة، وهو ليس أمر غريب

[1]– الرواية، ص 36.
[2]– الرواية، ص 38.
[3]– الرواية، ص 39.
[4] – الرواية، ص 52-53.

على قياد الجزائر، كما لا يخفى القايد حنيفي فخره بابنه أرسلان وهو حال كل الآباء خاصة في تلك المرحلة التاريخية

يصرح الراوي أيضا في مقطع سردي آخر كدليل على العنصرية والتعالي الذي تمييزه الأوروبيين والأقدام السوداء، وهو ما يكشف عن البعد الاجتماعي كذلك فيقول: "كان ذلك أمرا استثنائي! فكيف لنا في ذلك العمر، قبيل بلوغها التاسع عشرة، أنا وحاييم القادمين من لا مكان بالنسبة إلى من كان يرانا، من السيدات والسادة الأوروبيين والأقدام السوداء المتميزين بالتعالي، أن نكون مثلهم في الدرجة الأولى، وأن نتحرك في الرواق بلا ارتباك. وأن ندخل دورة المياه نفسها بلا تهيب، وباعتياد تناول غدائنا في مطعم القطار مثلهم أيضا!". [1]

نقرأ من هذه الفقرة السردية حالة الإقصاء القصوى التي تعرض لها الطلبة الأهالي، إذ حاييم وأرسلان هما عينة لهذه الفئة، ويقودنا الراوي من خطابه هذا إلى التهميش والنفي الذي عانى منه الجزائريون من قبل فرنسا وأتعابها. وهذا التمييز العنصري اللا إنساني الذي أفرز تصنيفات اجتماعية نمطية تدل على الجهل والتعصب والرجعية، كما يشير الكاتب إلى الصمود والتحدي من طرفه هو وحاييم لفرض وجودهم كصورة للفرد المثقف المتحضر. وبالتالي ضرورة التعايش والانفتاح الحضاري وتجاوز كل ما يسبب الصدمات الفكرية، وكذلك كل الحواجز العرقية والدينية واللغوية. والانفتاح على الآخر، لأن ذلك مكسب ثقافي حضاري تمكن الحبيب السائح من تجسيد البعد الاجتماعي، فأكسب المكان في هذه الرواية شعرية، أسهمت بشكل جمالي في تقريب الصورة للمتلقي ووضعه عنصرا هاما كذلك في هذا البناء السردي، كما اختزل أيضا صورة شاملة للعلاقات الاجتماعية لشخصيات الرواية ودورها في المتن الحكائي.

ه البعد الطبيعي:

" ويتجلى هذا البعد فيما يؤكد عليه «الراوي» من ملامح «المكان» المادية المحسوسة (شكل الشوارع، شكل البيوت، أحجامها، وتقاربها أو تباعدها، ..... إلخ) وهو بعد «مادي» متداخل بالضرورة مع البعد «الطبيعي» (شكل السماء – طبيعة الأرض وما بها من أشجار ونباتات .....إلخ). [2]

وبفضل لغة الراوي الشعرية وملكه الخيال التي يتمتع بها، استطاع تجسيد هذا البعد للمكان حتى يتمكن من مقاربة أحداث الرواية أكثر، وبالتالي التأثير على المتلقي، فيسيطر عليه جماليا ويشركه في عملية القراءة والتأويل وإنتاج معاني ودلالات النص.

---

[1] – الرواية، ص 62.

[2] – محمد السيد إسماعيل، مرجع سابق، ص 21.

فبالإضافة إلى الأبعاد والدلالية للمكان التي وقفنا عندها في هذه الرواية، نجد كذلك البعد الطبيعي يتجلى هذا الآخر محققا دلالات ساهمت في البناء العام لهذا النص السردي، وكمثال لهذا البعد من الرواية قول الكاتب: "وبصوت رخيم ونبرة موقّعة، كأني أسمعه الآن في عمق هذا الليل في مكتبتي، راح حاييم على هدير محرك الحافلة وتداخل أصوات المسافرين، يصف لي، كأنه رحالة، مرتفعات جيريقيل التي تبدو فيها السماء أقرب إلى الأرض من غيرها في أي مكان آخر، والسهوب ومساحاتها الشاسعة غير المحدودة بنظر، ذات الغطاء النباتي المدهش الممتد شيحًا وحلفاء كأنه محيط أخضر! وقطعان الضأن في السهول لدى غدوها ورواحها مثل كتائب متراصة.."[1].

الأكيد أنه ما من إمكانية لفهم دلالات العمل السردي في غياب تقنية لوصف، إذا القصة تتأرجح غالبا بين ثنائيتي السرد والوصف، والرواية التي بين أيدينا، أبدع صاحبها في استغلال عناصر السرد بشكل مرن متصرف في اللغة بطريقة حداثية، فشكل بهذا نصا بلغة شعرية مفارقة ودلالات متعددة.

ومن خلال المقطع السردي السابق الذي قاله أر سلان على لسان حاييم، الذي راح يصف جيريفيل ومرتفعاتها، وهي مدينة البيض حاليا، كما أشار الكاتب في الرواية، والراوي يريد بهذا الوصف إبراز المناخ الطبيعي والتضاريس التي تتميز بها أرض الجزائر، إذ هو لم يهمل في هذا السرد الروائي حضور كل الأبعاد، ليحمل نصه معان أكثر دقة ورمزية، وكذلك احتفاء حاييم بطبيعة الجزائر وأنه في وصفه لا يختلف عن بقية أبنائها، ولا نلمس في وصفه أي نبرة للعنصرية توحي بأنه مختلف عن هذا المجتمع، ذلك لأن الراوي تمكن من خلال ثقافته الواسعة، عمد إلى استغلال هذا الاسم التاريخي لمدينة البيض، ليعبر من خلاله عن دلالات عميقة، كما حمّل شخصية حاييم معان مكثفة، ليثبت أن فئة اليهود الجزائريين ساهموا في الدفاع عن الوطن كذلك، ومارسوا المواطنة بصفة حضارية، بالإضافة إلى هذا يؤكد الكاتب أنه بإمكان الآخر أن يكون عنصرا إيجابيا في مسار الحياة الاجتماعية، وأنه يمكن تجاوز اختلاف الدين والجنس طالما الاحترام المتبادل قائم بين الأفراد والجماعات، ومن هذه النقاط ومن خلال هذا البعد اكتسى المكان شعريته وحقق رمزيته التي أراد المبدع الإشارة إليها في قالب جمالي.

هناك ملمح آخر للبعد الطبيعي يتجلى في قول السارد: ".. وكنا قمنا، ومن النافذة، مرة أخرى، أخرجنا رأسينا، وصامتين مستنشقين هواء بدايات الخريف، رحنا نرنو إلى الجبال الصخرية أو الطينية حينا، وحينا نتملى

[1]- الرواية، ص 40.

الحقول المحصودة التي ترى في مساحات بعضها قطعن من الماشية ترعى في سلام، وبساتين الزيتون والتين واللوز والكروم، وكذا البرتقال الذي كان موسمه قد انقضى قبل شهور". [1]

يصف لنا أرسلان هنا تعدد المناظر التي رآها وهو مسافر بالقطار مع حاييم في الطريق إلى جامعة الجزائر، فمن سحر لغته الشاعرية وبراعة التصوير والتخييل التي احتوت عناصر البنية السردية للرواية، تمكن من جعل المتلقي يعيش هذه الرحلة، فيرى كل المناظر الطبيعية التي يراها الراوي وصديقه، فيكتسي المكان شعريته ودلالته التي يرمز إليها الكاتب، وهي تعدد المناظر وتنوعها في بلده الجزائر آنذاك.

يتجسد أيضا البعد الطبيعي للمكان ويخلق بهذا شعرية وجمالية، وذلك ما تضمنه قول السارد واصفا تواجده وصديقه في مدينة الجزائر: "مثل جنديين تماما، حاملين حقيبتينا، خرجنا من المحطة خلف السيد بنكَيكَي، راميين خطواتنا الأولى في إيقاع متزامن، على أرض مدينة الجزائر، في كان سيبقى منقوشا في ذاكرتنا، وفي سيارته، راكبين إلى الخلف، أدهشنا ما راح يمتد لأعيننا على الجانبين من الميناء الذي بقي وراءنا، إلى البنايات المتراصة والعمارات ذات اللون الأبيض ومصاريع نوافذها الزرقاء، غالبا، وأنواع السيارات والتراموا ي والشوارع الكبيرة وحركة الناس فيها، ...". [2]

من خلال هذه المناظر التي أبدع الروائي في تطويرها، حاول بلغة شاعرية رسم لوحة فنية لمدينة الجزائر، وعن طريق هذا التعبير نقل للمتلقي صورة عن طبيعة عمران المدينة آنذاك، كما نستشف من هذا الفارق بينها وبين مدينته سعيدة، وعن طريق هذا الوصف التخييلي أنتج الكاتب هذا الحيز المكاني بشعريته وفنيته التي زادت من واقعية هذا العمل السردي، وكذا الإيحاء بواقعية الأمكنة المتعددة فيها.

نلحظ كذلك ونحن نقرأ الرواية تجلّيًا آخر للبعد الطبيعي، وهذا ما منح السرد رمزية وجمالية أخرى، إذ يضيف السارد: "... وسألتني كيف وصلت، فاختصرت لها مغامرتي في القطار فابتهجت، قائلة إنها تتخيلها رحلة مثيرة، أسجل في هذه الليلة شعور بالشجن أني لجاذبية حسيبة الساحرة هززت رأسي فحسب متوهما إياها للحظة في تلك الرحلة بجنبي.. تهفهف نسمات الشمال شعرها الكستنائي ... مبهورة بامتداد الغربية يغمرها ضياء الأصيل، فهمست لها على رائحة الغابة تزداد انبعاثا كلما توغل القطار شمالا، كلاما عن أراضي مزرعتنا وحقول الجهة الشرقية منها، إذ تحممها صيفا وأوائل الخريف أنوار الفجر الطالعة من خلف الجبال مثل جلّناركوني.

"سعيدة أحببت أن تكون مدينة كبيرة"، قالت موسعة لي عينيها على صمت، "أصغر مما تتخيلينها"، أحبت

---

[1]- الرواية، ص 63-64.

[2]- الرواية، ص 65.

وقالت إنها جميلة مثل تحفة، وهوائها أنقى، وماؤها أعذب..". [1]

رسم لنا الراوي هذه اللوحة الفنية بلغة تقطر شاعرية بطريقة مدهشة، تجعل المتلقي يسافر عبر الزمن مخترقا عوالم مدينة سعيدة في ذلك الزمن البعيد، إذ صاغ عن طريق الخيال هذه الرحلة، جاعلا من شخصية حسيبة، وميلته بالجامعة طرفا في الحوار الذي دار بينهما عن مدينة سعيدة بجمالها، فتجلى البعد الطبيعي للمكان، مشكلا شعرية ورمزية انطلاقا من حديث الكاتب عن أراضي مرزعتهم، وهو ما يدل على مكانته الاجتماعية الميسورة، إضافة إلى تعلقه بالأرض، وكذا افتخاره بمدينة سعيدة الوطن، التي صورها تحفة جميلة، نقية الهواء، عذبة الماء، وعليه جاء هذا المقطع السردي عبارة عن صورة مكثفة لذلك المكان المتخيل بطبيعته الساحرة، فاتسم المكان إذن من خلال هذا البعد شعرية ومعان ودلالات.

يتجلى البعد الطبيعي في موضع آخر كذلك، إذ الراوي لم يفوّت وصف ما تقع عليه عينه تقريبا وهو يسافر بين الولايات، فجاءت صوره عبارة عن لوحات فنية لونها اللغة الشعرية، كما كانت كذلك عبارة بطاقات تعريف لهذه الأماكن، وهو ما زادها شعرية وجمالية، يقول الراوي: "..إذ انتبهتُ من مربع النافذة إلى بيوت مدينة تلمسان الأولى ذات السقوف القرميدية الحمراء". [2]

تبدو شعرية هذا المكان من خلال ما لم يعبر به الكاتب صراحة، بل يلتقطه المتلقي من بين السطور، إذ يشير الراوي بهذا الوصف الدقيق إلى طبيعة العمران في تلمسان، المدينة ذات الأصالة والتاريخ، فبرع في وصف بيوتها بهذا التجلي الجميل، كما أراد كذلك حضور هذه المدينة مهد الحضارة، إلى جانب المدن الأخرى، تمسكا بالهوية والوطن، وبالتالي الاستمرارية طالما تم تداول هذا العمل السردي، فصوت الراوي هو تعبير عن الضمير الجمعي، هكذا إذن، حقق البعد الطبيعي شعرية المكان ودلالته العميقة.

[1]- الرواية، ص 82-83.

[2]- الرواية، ص 141 .

يشكل المكان كعنصر من عناصر السرد الروائي مجموعة من المفاتيح الاستراتيجية التي تمكن المتلقي من الولوج إلى عالم النص، واكتشاف جمالياته، وكذا الوقوف على مجموعة القيم والرؤى والإيديولوجيات التي يتبناها الروائي في نصه الإبداعي، "ويشكل محورا من المحاور الرئيسية التي تدور حولها نظرية الأدب، وأحد العناصر والركائز المهمة والأساسية في البناء الفني، لأن الفضاء الروائي يحتاج إلى أمكنة عديدة ذات بنية نابضة بالحركة، ويكتسب المكان في الرواية أهمية كبيرة ودلالة خاصة، فهو ليس فقط مكانا فنيا، وليس عنصرا من عناصر الرواية، وإنما هو المكان الذي تجري فيه الحوادث وتتحرك فيه الشخصيات". [1]

وللمكان قيمة فنية، تتكامل بعلاقته مع العناصر الأخرى، إذ أن "المكان لا يعيش منعزلا عن باقي عناصر السرد وإنما يدخل في علاقات متعددة مع المكونات الحكائية الأخرى للسرد، كالشخصيات والأحداث والرؤى السردية.. وعدم النظر إليه ضمن هذه العلاقات والصلات التي يقيمها يجعل من العسير فهم الدور النصي الذي ينهض به الفضاء الروائي داخل السرد" [2]، إذ ان ارتباط هذه العلاقات فيما بينها بفضل لغة المبدع ينتج لنا الشعرية التي هي "خصيصة علائقية، أي أنها تجسد في النص شبكة من العلاقات التي تنمو بين مكونات أولية، سمتها الأساسية أن كل منها يمكن أن يقع في سياق آخر دون أن يكون شعريا". [3]

تتجلى أهمية المكان من خلال علاقاته بالمكونات الحكائية الأخرى، والتي سنأتي على ذكرها، مشكلا بذلك أبعادا جمالية ودلالية.

1- علاقة شعرية المكان بالزمان:

يعد المكان من أهم العناصر السردية في بنية الروائي الذي تكتمل وظيفته الدلالية والجمالية من خلال العلاقة الثنائية بين المكان والزمان، إذ الحديث عن أحدهما يستدعي جدليا الحديث عن الآخر، فالعلاقة بينهما إذا هي " علاقة المتغير بالثابت وهي أيضا علاقة المتغير (أي الزمن) بعناصر البناء الروائي (أي المكان والشخصيات)، والمكان والزمان هما مكونان للفضاء الذي يتشكل فيه الوجود الإنساني، حيث أن لكل بنية خصائصها، وللرواية علاقة خاصة تربط بين المكان والزمان، وتتسم هذه العلاقة بمجموعة من القيم الجمالية والفنية التي تشكل فضاءها، حيث أن فضاء الرواية يتشكل من بعدين احدهما أفقي والآخر عمودي مكاني". [4]

يقترن المكان بالزمان إذا في العمل الروائي، ويقدمان للمتلقي إطارا لباقي الأحداث، ومن ثمة تتولد الدلالات وتتجلى الجمالية، فالمكان تتضح شعريته وملامحه الفنية من حيث ارتباطه بالزمان، ومنه التأثير المتبادل

---

[1]- مهدي عبيدي، مرجع سابق، ص 26.

[2]- حسن بحراوي، مرجع سابق ، ص 26.

[3]- كمال أبو ديب، في الشعرية، مؤسسة الأبحاث العربية، لبنان، ط 1، 1987، ص 14.

[4]- حميد لحميداني، مرجع سابق، ص 80-81.

بينهما، حيث "يستحيل وجود مكان أرضي لا يتضمن كمية من الزمن وجدت بوجوده وأشكاله التي تختلف من عصر إلى عصر، ومن حضارة إلى أخرى، والمكان لا تتجلى أبرز صفاته الجمالية إلا من خلال الزمان".[1]

يتضح لنا جليا من خلال ما سبق أهمية العلاقة بين المكان والزمان، القائمة على التأثير والتأثر، لهذا تتسم الرواية بحضورهما إضافة إلى الشخصية. وهي العناصر البارزة في التشكيل السردي، والتي ينسجها الروائي بلغة شعرية تملأ المتلقي دهشة واستفزازا شهيا.

هذه العلاقة اذ استوقفتنا في الرواية، لما شكلته من إضافة دلالية وإبداعية، اذ يستهل أرسلانا لحكي بهذا البوح النوستاليجي الحزين: " تقدمت، وعند الباب الصامت، ذاك الذي رأيت حاييم يخرج منه بمحفظته قبل ثمانية وعشرين عاما كي نتوجه معا لأول مرة إلى مدرسة غول فيري، .... " يجسد لنا الراوي بهذه الرؤية المشهدية، عن طريق الاسترجاع السردي ـ عودة إلى الماضي البعيد، مستثيرا أحداثا وذكريات جمعته مع صديقه حاييم، فنقل المتلقي من الزمن الحاضر إلى زمن الماضي فاستثار ذهن القارئ إذا، واستحوذ على أفق توقعه، فرسم صورة فنية من خلال المكان والزمان المكثف بلغة لينة ذات بصمة خاصة، ومن هذه الزاوية تجلت علاقة شعرية المكان بالزمان نقف كذلك على هذه العلاقة بين المكان والزمان في هذا المقطع السردي :" صبيحة يوم الأحد، إذ وصلنا في لباسنا الشتويين إلى النادي الكائن قريبا من ساحة الدوق دوريال، متأخرين قليلا لطول المسافة التي قطعناها إليه، مشيا .... كان الصادق قد شرع منذ لحظات في تقديم عرضه، .... عن أوضاع الأهالي الاجتماعية القاسية في الأرياف وفي ضواحي الصفيح والأحياء الشعبية، .... "

نقل لنا الراوي عن طريق ثنائية الزمان والمكان، صورة لنوع من المقاومة والمرافعة رفضا للأوضاع السائدة أنا ذاك، جاعلا من المكان "النوادي" آلية من آليات الخطاب المضاد، لتكتمل الشعرية المكانية في علاقتها بالزمان الذي ابتدعه الكاتب، مستقطبا انتباه المتلقي، الذي سيتبادر إلى ذهنه من خلال الزمان (صبيحة يوم الأحد) أنه الزمن المخصص –ربما– لعرض انشغالات الطلبة والنقاشات بينهم في النادي حول وضع الأهالي خاصة.

ومنه فان علاقة شعرية المكان بالزمان التي اشتمل عليها ذلك المقطع السردي، تجلت عن طريق الاسترجاع السردي، لمسار الحكي الذي دعم به الكاتب بناء الرواية، فتعمقت الدلالات أكثر التي تتم عن وعي الطلبة الجزائريين بمصيرهم ورفضهم للعنصرية والظلم، وقد كانت شخصية الصادق عينه لهؤلاء الطلبة وصوتهم الموحد.

[1]- محمد السيد إسماعيل، مرجع سابق ، ص 19.

تحضر كذلك علاقة شعرية المكان بالزمان مشكلة لمسة فنية، وبعد دلاليا في هذا البناء الروائي الذي صاغه الكاتب بطريقة حداثية، بفضل لغته الساحرة الإيحائية وذلك بقوله: "في اليوم الموالي، المصادف للأربعاء في الحادي والثلاثين من أكتوبر الذي كانت الحرب غداته ستدخل عامها الثالث، دعاني حاييم إلى عشائه في بيته، وخلاله عبر لي من جديد عن مخاوفه علي، .... ومن دون أن يصرح لي أني مراقب، أخبرني أن المفتش آلان بورسييه كان قد جاءه صباح ذلك اليوم، وسأله، خلال معاينة محل الصيدلية، إن أنا سأكون شريكا له".[1]

يستغل الروائي عنصر الزمان في علاقته البديعية بالمكان ليؤثث به روايته هذه، مستدعيا بهذا اهتمام المتلقي بطريقة سحرية، لذلك اتخذ من تاريخ الجزائر، وما عرفته الثورة من نضال ومكابدة، إطارا للسرد، فأثر عندئذ على القارئ الذي شارك هو الآخر في تفكيك شفرات الخطاب، فالملاحظ عن الشعرية المكانية في علاقتها بالزمن، هو أن الراوي اختار ذلك التاريخ الوارد في المقطع السردي الوارد أخيرا . كي يكثف الأحداث، إذ هو تاريخ وزمان ينم عن علاقته بتاريخ الجزائر، وهذا ما يزيد من إمكانية واقعية السرد، وقد عمد الروائي إلى الحديث عن صديقه حاييم وهو الآخر الذي جعل منه عنصرا فعالا في مجريات الأحداث التاريخية، وبالتالي تتجلى وطنيته من خلال الدور الذي قام به طيلة مسار حياته، إذ ذكر الكاتب ذلك التاريخ والوقت، مقترنا بالمكان – بيت حاييم – الذي دعاه إليه. ليدل على مدى العلاقة الوطيدة والوطنية بينهما، إذ يشكل بيته أيضا مرجعية في الخطاب المضاد، كذلك صيدليته، إذ تستر مرات عديدة عن المناضلين . خاصة أرسلان . فلم يخنه ولم يقدم أي معلومات عنه لآلان بورسييه المفتش، فالمتلقي المثقف الواعي بالتاريخ، يدرك أن الروائي انطلق من مرجعيات عديدة، خاصة التاريخية، تاريخ الجزائر تحديدا وعليه فقد ضاع المكان في علاقته الشعرية بالزمان، فخلق دلالات تحمل رمزية وأبعادا جمالية، تبدت في سرد استذكاري ينم عن فترة من تاريخ الوطن، كانت متأزمة كثيرا، وبهذا وضع القارئ في خضم أحداث تاريخية، وهذا أسهم دون شك في قابلية واستمرارية تلقي وتتبع كامل مجريات الرواية.

يقول الكاتب أيضا في هذا المقطع السردي الذي يوضع علاقة شعرية المكان بالزمان: "تلك الليلة الأخيرة من شهر أكتوبر الباردة عام ستة وخمسين. مررنا لابسين معطفينا، بالقرب من كنيسة القديسة جان دارك فسمعنا قرعا تناوبيا، بطيئا وخفيفا، كالذي صار يسمع من وقت إلى آخر من أكثر من نصف سنة، إعلانا عن وفاة غالبا ما يتلوه خروج نعوش مسجاة بالعلم الثلاثي الألوان محمولة على عربة عسكرية في اتجاه مقبرة النصارى..".[2]

---

[1]– الرواية، ص 165-166.

[2] – الرواية، ص 168-169.

يواصل الكاتب سرد الأحداث بلغة شاعرية تحمل بصمته الخاصة، مستثمرا التاريخ الذي يسأله بطريقة مفارقة، ليبني الخطاب الروائي، الذي يقوم على المكان والزمان كركائز أساسية، بالإضافة إلى الشخصية، ولهذا يضعنا الروائي دائما في هذه المقاطع السردية في عمق الزمان والمكان، إذ ذِكر الوقت والتاريخ يزيد الأحداث واقعية ومصداقية . إن جاز القول، فالكاتب يجعلنا نعيش هذا التاريخ أو على الأقل يمكن أن نتصور معه ذلك الموقف وأنه عايشه فعلا، وذلك بفضل مهارة التصوير لديه فضلا عن لغته الدالة، لذا تجلت علاقة شعرية المكان بالزمان بطريقة فنية، فهو في ذلك المقطع السردي يجسد لنا أيام الثورة ليلا، ذات تشرين بارد، ومن خلال هذا نقل لنا مرافقة حاييم له دائما، كما عبر لنا عن حال الكنيسة الموجودة بأحد الشوارع ...... وحقيقة الوفاة كذلك في صفوف الآخرين من النصارى، وعليه فقد كشفت هذه العلاقة بين المكان والزمان عن حقيقة تاريخية وبعدا ثقافيا، تجلى على سبيل المثال في كيفية الإعلان عن المتوفين من خلال تلك الكنيسة..، كما دلت كذلك -كصورة حية- عن الأوضاع السائدة عام ذاك.

هكذا إذا فقد حقق الروائي دلالات زادت من جمالية هذا العمل الروائي، ذلك بفضل تمكنه من استغلال العلاقة الفنية والرمزية بين عنصر المكان والزمان، إذ الزمان إضافة إلى المكان يشكل كل منهما عالم السرد والشعرية، وفي هذا الشأن يقول مهدي عبيدي عن أهمية الزمن في الرواية : " إن الزمن في الرواية، زمن داخلي، حركته هي حركة الشخصيات والأحداث، والزمن الروائي ليس زمنا واقعيا، وإنما هو زمن داخلي، حركته هي حركة الشخصيات والأحداث، والزمن الروائي ليس زمنا واقعيا، وإنما هو زمن تكثيف وقفز وحذف وتقنيات يستخدمها الروائي من قيوده، ويتسع وتتقلص وتتجلى مهمة الزمن الروائي في خلق الإحساس بالمدة الزمنية الروائية والإيهام التام بأن ما يعرضه الروائي هو واقع حقيقي". [1]

بفضل هذه الميزة التي يتصف بها الزمن السردي، تمكن الروائي من استغلاله بطريقة شاعرية، خلقت جمالية ودلالات متفردة، أضفت طابع الواقعية على الرواية.

2- علاقة شعرية المكان بالشخصية:

يرتبط المكان بمختلف عناصر السرد الروائي لتحقيق بناء كامل شكليا ودلاليا، ويستلزم حضوره شخصيا تتفاعل معه مكونة أبعادا متعددة، ومعان أكثر إيحائية، لأن الشخصية تتأثر وتأثر في المكان، الذي يحقق وجوده وأهميته من خلال هذه العلاقة : " فالمكان لا يظهر إلا من خلال وجهة نظر شخصية تعيش فيه أو تخترقه، وليس

[1]- مهدي عبيدي، مرجع سابق ، ص 229.

لديه إزاء الشخص الذي يتدرج فيه، وعلى مستوى السرد، فان المنظور الذي تتخذه الشخصية هو الذي يحدد أبعاد الفضاء الروائي ويرسم طبوغرافيته، ويجعله يحقق دلالته الخاصة وتماسكه الإيديولوجي. [1]

كما يعكس المكان كذلك سلوك الأفراد وأحوالهم الشعورية ومنه فالشخصيات الروائية تعتبر من خلال تصرفاتها عن طبيعة المكان وتتضح علاقتها به، والرواية محل دراستنا تشتمل على عدة أماكن اختارها الروائي ليؤنث بها هذا المتن السردي بالإضافة إلى خلق شخصيات تواشجت فنيا مع هذه الأماكن مشكلة شعرية ودلالات عميقة ويمكن أن نذكر من الرواية هذا الشاهد: "وقفت، على الرصيف المقابل، وقفة لم أقفها من قبل، محزون الخاطر أمام دار حاييم بنميمون تبدو وساكنة مثل كائن تحجر، ملتفة على فراغ بات يسكنها منذ أن أطاح الدهر، قبل ثلاثة أشهر، بآخر أهلها الغابرين". [2]

تبرز لنا جليا في هذا المقطع السردي شعرية المكان وتأثيرها على الشخصية إذ انطلق البطل في بنائه السردي. من هذه الشخصية التي ابتدعها وهي شخصية حاييم، حيث. برع في وصف المكان (منزل حاييم) الذي يبدو أنه سبب له نوعا من الحزن والكآبة، فقد عمد إلى تذكره بكل حنين، وهنا يعبر عن العلاقة المتينة بين المكان (منزل صديقه حاييم)، والشخصية التي يريد أن يؤسس بها لخطابه الإنساني الذي يتجلى في باقي مسار السرد، وهي شخصية حاييم ومن هنا عبرت هذه العلاقة بين الشخصية والمكان عن شعرية مضمرة نستشفها من خلال مواصلة القراء والتأويل هذه العلاقة التي وفرت للروائي كذلك فسحة ومجالا ملائما لانطلاق السرد.

ولأن المكان هو الإطار الذي تتحرك فيه شخصيات الرواية وبالتالي ينعكس على سلوكياتها وحالاتها الشعورية لهذا "لا يمكن تخيل الإنسان بدون وجود في المكان، ولهذا كان المكان أسبق في وجوده من الوجود الإنساني" [3] ، كما أن "المكان ليس موجودا خارجنا أكثر مما هو موجود بداخلنا". [4]

نقف على نموذج أخر لعلاقة شعرية المكان بالشخصية، وذلك في هذا المقطع السردي: " كل شيء، كل الأثاث طهر لي في مكانه على الحال التي غادره عليها حاييم أخر مرة، وكما أردت له أن يبقى منذ أن أوصيت الخادمة عوينة بأن لا تزحزح شيئا منه، عند تنظيف البيت مرة كل نصف شهر". [5]

يشتمل هذا المقتطف السردي على شعرية العلاقة المكانية بالشخصية، فقد تمكن الكاتب بفضل لغته الشاعرية من جعل المكان الذاكراتي وهو منزل حاييم، يعبر عن العلاقة الحميمة بينهما، إذ يبدو أن شخصية

---

[1]- حسن بحراوي، مرجع سابق ، ص 32

[2]- الرواية، ص 11.

[3]- محمد السيد إسماعيل، مرجع سابق ، ص 12.

[4]- زيد عبد الصمد، المكان في الرواية العربية (الصورة والدلالة)، كلية الآداب، منوبة، ط 1، 2003، ص 341.

[5]- الرواية، ص 12.

صاحبه انعكست عليه، فصار هذا المكان مألوفا بالنسبة للبطل أرسلان ومقدسا ذلك لأنه يعبر عن شخصية حاييم. جعل الكاتب من خلال هذه العلاقة الفنية للمكان والشخصية لغة يرسل بها خطابه الإنساني، الرامي إلى التعايش السلمي في ظل سماحة الأديان والتشبث بالمبادئ الإنسانية والإيمان بالقضايا العادلة.

ولأن للمكان في علاقته بالشخصية أهمية بالغة في المتن السردي، تمكن الحبيب السائح من تشكيله في صور جمالية عديدة، حيث شكل في كل تمظهراته، دلالات بعيدة بلغة إيحائية، دعمت الرسالة الخطابية للروائي.

هذا وقد أبدع الكاتب في توظيف المكان وتفاعلاته مع شخصيات الرواية، فانبثقت عن هذه العلاقة بين هذين العنصرين شعرية أسهمت في إضفاء طابع جمالي ودلالي على عالم الرواية محل دراستنا، ويمكن توضيح هذه العلاقة كذلك في هذا المقطع السردي فنجد البطل يقول : " غير أن مسيو ويل فاجأني مرة بأن ناداني من بين تلاميذ الداخلية، قبل ولوجنا قاعة المذاكرة المحروسة .... فمسيو ويل لم يكن، في تعامله معي على الأقل، شخصا عاديا، حتى لا أقول غير سوي، ذلك ما كنت اكتشفته في تلك السنة "[1] ، ويضيف الراوي : " مثل حارس سجن يستعرض هيبته على محبوس، نظر إلي مسيو ويل نظرة صارمة انقبضت لها عضلات وجهه.[2]

تتجلى علاقة شعرية المكان بالشخصية في هذا التمثيل من الرواية في كون هذا المكان (الثانوية ذات النظام الداخلي) هي بمثابة السجن للبطل وصديقه، وذلك لطبيعة نظامها العنصري الذي مثلته شخصية مسيو ويل، هذه العلاقة إذا . خلقت شعرية ونسقا دلاليا، إذ أراد الروائي من خلال هذا الحيز والشخصية المخترعة، طرق موضوع السياسة الاستعمارية السائدة آنذاك، بدءا من احتكار المؤسسات التعليمية إلى فرض الهيمنة والسيطرة على أصحاب الأرض، كما رسم صورة نمطية سائدة بصرامتها، في تلك الفترة من تاريخ الجزائر، هي صورة لشخصية كثفت عدة أبعاد، تمثلت شخصية مسيو ويل، وهو الذي عبر به عن الآخر المعادي الظالم، وهو من الأقدام السوداء كما صرح.

هكذا إذن وفق الكاتب في استغلال أماكن عمله السردي وعلاقاته بين الشخصيات، القائمة على التأثير والتأثر، وفق في إيصال أنساق فكرية إلى المتلقي، الذي يساهمه بدوره في تفكيك ثغرات هذا الخطاب. وقد استمد ذلك من مرجعيات تاريخية، ثقافية واجتماعية وغيرها .

تظهر كذلك علاقة شعرية المكان بالشخصية، من خلال حديث البطل عن والده القايد. صاحب الجاه والنفوذ، مالك الأراضي والمزارع .... " وكون والدي، المنور حنيفي، غنيا ومالك أرض وأحد الأعيان ومتعلما، مثله مثل والدتي، حاز تقديرا وهيبة لنيله الشهادة الابتدائية في المدرسة الفرنسية وحفظه القرآن وتفقهه في الدين، رفعته

[1]- الرواية، ص 27.

[2]- الرواية، ص 27.

الإدارة الفرنسية إلى مرتبة قائد القبيلة ..... أما والدتي تركية بنت سليمان فلأنها من عائلة شريفة وثرية من أهل السهوب، كانت تقرأ وتكتب". [1]

قد صور الكاتب من خلال مرجعياته التاريخية وخلفياته الثقافية هذه الفئة الضاربة في عمق تاريخ الجزائر، وهي فئة القياد، مكثفا من منطلقها بعدا تاريخيا، يتجلى في الدور الذي لعبته هذه الشريحة في مسار التاريخ وعلاقتها بأبناء أرضها، حيث يبدو القايد في نصه إيجابيا، فرغم صرامته وسلطته الإقطاعية، فقد كان متعاطفا مع الانديجان. بالإضافة إلى هذا نجد الروائي قد صور لنا البعد الاجتماعي كذلك، وذلك من خلال اختيار أسماء الشخصيات التابع من عمق الثقافة الشعبية الجزائرية، كما تبدو الشخصيات كذلك على درجة من الثقافة والعلم ويضيف الراوي أيضا في مجال سردي آخر:"... قبل أن أَرجع إلى مزرعتنا رفقة والدي في سيارته التي سلمني قيادتها، لأول مرة، راكبا إلى الخلف كما تقتضيه منزلته.

علي أن أقول إني انتظرت طويلا كيما أحوز ثقة والدي في . فرجل مثل القايد حنيفي، لصرامته وصلابته، حتى مع نفسه في لباسه وحديثه ومشيته وأكله، ظل يتمتع بصبر ثقيل ونافذة على غيره حين يضعه موضع اختبار "[2] . من خلال هذا المقطع نكتشف مدى تأثير المكان بالشخصية، أو بالبطل الذي يبدو متأثر جدا بهذا المكان المزرعة التي تمثل مرابع طفولته، كما تبدو شخصية الوالد مرتبطة دلاليا بهذا المكان كذلك الذي انعكس على طباعها وعاداتها اليومية وهنا مكن الشعرية المكانية في ارتباطه بالشخصية، والتي تؤدي غاية جمالية ونسقا فكريا برمزية عميقة، ويردف البطل بخصوص هذه الشخصية قائلا: "... والذي ... هو الآخر لم أر يوما رأسه عاريا من واحدة من عمائمه المختلفة الأشكال والألوان، المستعملة في الخروج والمناسبات عدا عمامة البث التي ظلت دائما خفيفة". [3]

يوضح البطل في هذا المثال السردي. وشكل جلي مدى انعكاس طبيعة المكان على الشخصية أو العكس، وذلك من خلال الرموز الثقافية والاجتماعية من عادات وتقاليد، من مثل اللباس والأكل وكيفية الاحتفال، فقد جسد بشخصية القايد، بما شحنها من أبعاد، جسد طبقة اجتماعية، لها وزنها على الصعيد التاريخي خاصة، كما عبر بالحيز المكاني وهو المزرعة سواء ذكره ضمنيا أو بشكل صريح. عبر عن وعي جمعي تجاه هذا المكان الريفي بما يحمله من ألفة وعادات وتقاليد مشتركة، تصور المجتمع الجزائري وقتذاك، إذ أسهم إبداعه هذا في توليد عدة أنساق فكرية قابلة للتفكيك والقراءة من طرف متلق واع مثقف .

[1]- الرواية، ص 191.

[2]- الرواية، ص 52.

[3]- الرواية، ص 55.

يمكن القول أن المبدع حقق بفضل المكان في علاقته المتبادلة مع الشخصية شعرية وجمالية، كما لملم بشكل فني عناصر السرد، فوجود المكان متلازم مع وجود الشخصية " فالمكان والشخصية يستمدان معناهما من بعضهما. [1]

هناك علاقة متينة إذا بين المكان والشخصية قائمة على التأثير والتأثر، وبفضل الحركية بينهما تتطور الأحداث الروائية وتنمو لدلالة والرمزية، ويعود ذلك على البراعة اللغوية والتخيلية للروائي الذي ينتج شخصيات الرواية وينوعها فتكون بناءا سرديا متكاملا، مؤكدا بهذا على أهمية المكان ومدى رمزية العلاقة بينه وبين الشخصيات السردية، " فلقد دخلت العلاقة بين الشخصية والمكان مرحلة جديدة، أصبح المكان شرطا للوجود ذاته، عاملا من العوامل بين الشخصية وتحديد استجاباتها". [2]

وتكمن هذه الاستجابات في العلاقة التفاعلية المتبادلة بين الأمكنة الروائية والشخصيات، مؤدية وظيفة شعرية ودلالية.

يمكن أخذ عينات تتضح فيها شعرية المكان وعلاقته بالشخصية، من الرواية والتي عمد صاحبها إلى تنويع هذه العناصر السردية، فتعددت بذلك الأنساق الفكرية، متخذا من هذه العناصر مسرحا الأحداث رواية، وكمثال على ذلك قول الراوي: "برفع الجلسة، وقد شرع الحضور في مغادرة القاعة، إلا بعض من تحلقوا في مجموعات صغيرة هنا وهناك يبدون لا يزالون في خضم النقاش الجانبي، اقتربت رفقة حاييم من الصادق بجانب المنصة يتحدث مع حسيبة ..." [3]، يشير السارد في هذا المقطع إلى نهاية إحدى الجلسات التي تقام بنادي الطلبة المسلمين من طرف مجموعة من الطلبة الجامعيين، حيث نستشف من دلالة هذا المكان الموظف هنا ما يحمله من رمزية، إذ يعتبر آلية خطابية، تتوافق معه هذه الشخصيات المذكورة، ويكتسب دلالته من تفاعل الشخصيات عبره، وجعله وعاء وحاضنة لحركية الأحداث، ومن هنا يمكن الوقوف على شعرية هذا المكان في علاقاته بالشخصيات، والتي يمكن عدها عينة لفئة مثقفة فالراوي عبر عن الوعي الجمعي والهم المشترك في طرح القضايا الوطنية المتعددة، كما لم يستثني دائما الصديق حاييم، هذا الذي يمثل فئة يهود الجزائر وما كان لهم من دور إيجابي في تاريخ الوطن، محاولا إثبات إنسانيتهم ووطنيتهم بغض النظر عن اختلاف الجنس والدين.

[1]- جون بيار كولدنستاين، الفضاء الروائي، نقلا عن كتاب: وردة معلم، متخيل الفضاء في روايات إبراهيم الكوني، الوسام العربي للنشر والتوزيع، عنابة، الجزائر، ط 1، 2016، ص 178.

[2]- سيزا قاسم، مرجع سابق ، ص 100.

3- شارل كريفل، المكان في النص، نقلا عن كتاب: وردة معلم، متخيل الفضاء في روايات إبراهيم الكوني، الوسام العربي للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 1، 2016، ص 47.

اهتم الكاتب إذا بالمكان كعصر أساسي يؤطر مجريات أحداث الرواية كما أنه أحد مكوناتها البنائية والدلالية، ذلك لأنه " نتاج للسرد، كما يسهم بدوره في خلق السرد". [1]

مكن الروائي قراءة من الوقوف على العديد من المعاني المضمرة بين طيات السرد، وذلك من خلال تنويع الأماكن التي تشكلت عالم الرواية، وحسن ربطها بالشخصيات في علاقة ذات رمزية .

وكمثال إذا على شعرية المكان في علاقته بالشخصية نجد قول السارد: "في اليوم الموالي، المصادف للأربعاء في الحادي والثلاثين من أكتوبر الذي كانت الحرب غداته ستدخل عامها الثالث، دعاني حاييم إلى عشاء في بيته، وخلاله عبر لي من جديد عن مخاوفه علي، كان يحس أني لن أستطيع تجنب الخطر إلى مالا نهاية من غير أن أغطي بوظيفة ما على ما أقوم به..."[2]، تبدو علاقة شعرية المكان جلية في هذا الشاهد السردي، حيث برع الراوي في إبداع هذا الحيز الفضائي، بالإضافة إلى شخصية حاييم والتي هي محور السرد، وعليه نقف على هذه الشعرية التي زادت الرواية واقعية ودلالية، فالسارد جعل من بيت حاييم بن ميمون ووالده موشي وأمه زهيرة سماح، مكانا محل ثقة وسرية، ليثبت بهذا دور البطل حاييم في أحداث الرواية، متخذا من الإطار التاريخي مسرحا لها، وبالتالي إثبات بعده الخطابي، ومصداقيته -إن جاز القول- مؤكدا على الدور الإيجابي للآخر الذي تمثله شخصية حاييم. هذه الشخصية التي كانت صديقا للثورة وإحدى المساندين لها، وهو ما يدل على الوطنية والإخلاص للوطن، رغم الاختلاف في الجنس والعقيدة. يمكن الوقوف على شاهد أخر من الرواية يجسد علاقة شعرية المكان بالشخصية دائما ومدى مساهمتها في إثراء عالم السرد وذلك في قول أرسلان: " ولكنك هنا في صيدليتك تقدم ما يسند السلاح ولولاك ما كانت زليخة لتنجو في تلك الليلة" [3] ، ويضيف: "... وفي داخل الصيدلية دار نصف دورة "هذه الرفوف بكل ما فيها تحت تصرفك " فقط مورفين، ضمادات، مراهم، أسبرين، بيني سيلين، كحول وقطن". [4]

يشير الكاتب هنا وبشكل صريح إلى الدور الفعال الذي يقوم به حاييم هذا الذي أبدع الروائي إنتاجه، فكان الشخصية السردية البارزة في الرواية والتي عن طريقها يحاول المبدع إثبات إيجابية وأهمية هذا الآخر وإعطاء خطابه الحضاري بعدا واقعيا إنسانيا، وعليه فالمتلقي يقف على شعرية المكان والعلاقة التي تربطه بشخصية حاييم، الصيدلي الذي جعله الراوي يكافح بطريقة خاصة ومميزة، بالإضافة إلى كونها مكانا لنشاط الجماعة المناضلة، وفيه

---

[1]- الرواية، ص 96.

[2] - الرواية، ص 165-166.

[3]- الرواية، ص 188.

[4] - الرواية، ص 188-189.

تناقلت الأخبار وتبادلت المعلومات بكل سرية وثقة، فحاييم مثل فئة يهود الجزائر الوطنيين والمناضلين، فلم يخن مبادئ الثورة، بل كان من المساهمين في النظرة الاستشرافية لها والداعين إلى ضرورة التغيير، والعيش في سلام، فانعكست شخصيته على المكان أي الصيدلية، فكان حيز أمان وثقة، حتى النهاية ...، رغم التهديدات والمضايقات، التي أدت إلى حرقه بعد الاستقلال من طرف بعض العنصريين، إلى أن أعيد فتحه من جديد بفضل أرسلان، يمكن القول أن العلاقة شعرية المكان بالشخصية تجلت في الدور الذي قامت به الشخصية في مجال نشاطها في إطار زماني، أي نشاط حاييم إبان الثورة في صيدليته تلك، ليصبح هذا المكان / الصيدلية آلية في الخطاب المضاد وبالتالي يتخذ الكاتب من شخصية حاييم نموذجا إيجابيا عن الآخر ... – إن صح القول –، ومنه التأسيس لمبدأ التعايش السلمي والإنساني وضرورة الانفتاح الحضاري ومعرفة الآخر، دون مراعاة اختلاف الدين والجنس، ووجوب نسف الأطروحات القائلة بأن سبب الصراعات والأزمات هو اختلاف الدين .

أعطى الروائي أهمية بالغة للمكان، وذلك من خلال التشكيلات المختلفة التي صاغه بها، باعتباره العامة الأساسية في العملية السردية، في علاقاته الدلالية بعناصر السرد الأخرى، ذلك " أن تشخيص المكان في الرواية هو الذي يجعل من أحداثها مكاني معين، لذلك فالروائي دائما بحاجة إلى التأطير المكاني ".[1]

والروائي لحبيب السائح استطاع أن يستقطب القارئ إلى روايته هذه متفاعلا مع أحداثها مستمتعا بشاعرية اللغة، التي عبرت بحق على مدى ثقافة المبدع . وذكائه في تعاطيه مع أحداث الرواية متخذا التاريخ إطارا لها، معيدا قراءته بطرح مفارقه وفق رؤى معاصرة دون المساس بقيمته الجوهرية الثابتة، وقد حقق الكاتب بعنصر المكان في ترابطه ألعلائقي بالشخصية رمزية ساهمت بشكل بارز في تمتين خطابه، وتمكين توجهاته الروائية جاعلا من نصه السردي ينفتح على جميع القراء.

وظف الكاتب المكان في نصه توظيفا دلاليا، مستمدا شعريته من علاقته بشخصيات السرد، التي برع الروائي في تصوير ها بكل طبائعها وسماتها، وكيفية قيامها بأدوارها السردية، وكذا وظائفها الرمزية داخل المتن الروائي، بحيث قدم الروائي شخصيات روايته بطريقة ذكية ولعب دور الروائي العليم بحيث " غالبا ما يكون الراوي هو من يمدنا بالمعلومات حول الشخصية بالمقدار وبالشكل الذي يقرره المؤلف ويصادق عليه، وتبدو هذه السيطرة مبررة على نحو ما، لأنها ستكون نتيجة طبيعية لهيمنة الراوي العليم على مجال السرد برمته بما في ذلك عالم الشخصيات الروائية". [2]

1- حميد لحميداني، مرجع سابق ، ص

2- حسن بحراوي، مرجع سابق ، ص 232-233.

والحبيب السائح مؤلف هذا العمل الروائي، كان هو الراوي نفسه، وهو البطل الأول ممثلا في شخصيته أرسلان الذي تربطه علاقة وطيدة بالبطل الثاني حاييم، والذي سعى من خلاله إلى التعايش السلمي والانفتاح الحضاري، وكذا نقاش الأفكار، ولعل هذا ما يؤكده إخبار البطل الراوي تخصص الفلسفة بالجامعة، إذ تعتبر أم العلوم والحكمة، تقوم على الخطاب العقلي وهو ما يتماشى وتوجه الروائي إلى تبادل الأفكار وتقبل الاختلاف.

وبالحديث عن علاقة شعرية المكان بالشخصية في الرواية موضوع دراستنا يستوقفنا الشاهد التالي أيضا الذي يصف فيه السارد المزرعة حيث ألفى أمه في أبهى صورة مسرورة بعودته مكللا بالنجاح، "حين وصلنا المزرعة دخلت على أمي في حجرتها فقامت لي في عباءتها الحريرية البيضاء، ممسكة إلى الخلف شعرها الأسود بعصابة مذهبة، مشرقة الوجه الأبيض الندي، ولك أن تتصور أنك فتحت نافذتك بعد ليلة هادئة على صباح رائق! وزغردة، أجل زغردة! كان ذلك أقوى من أي شيء تعبيرا عن الفرح الأسمى ..." [1] . يعبر الراوي في هذا المقطع عن صورة المرأة الأم، ويبدع في وصفها، خاصة اللباس الذي يعكس طبيعة المكان المزرعة، وهذه الشخصية (الأم) هي عينة لكل امرأة جزائرية بأصالتها وعاداتها وتقاليدها، ومنه تظهر علاقة شعرية المكان بالشخصية في اللغة الشاعرية الرمزية التي قدم بها الكاتب الشخصية، إذ جعل من أمه صورة لكل أم، وجعل من المزرعة أي الريف باحتوائه لهذه الشخصية، صورة شاملة للمجتمع الجزائري في تلك الفترة من الزمن . وهو نموذج لإحدى الأسر يعود إليها ابنها ناجحا، وهو ما لم يكن بالأمر اليسير في ظل سياسة استعمارية عنصرية، فالشعرية لا تكمن في البنية التعبيرية السطحية، وإنما في ما يتوارى بين طيات الخطاب، أي النسق الفكري الذي يسعى الروائي إلى تمريره إلى القارئ.

تتبدى كذلك علاقة المكان بالشخصية في روايتنا من خلال بيت الجدة الذي جسد بؤرة الصراع بين الجزائر وفرنسا، حيث حمله الروائي شحنات دلالية عديدة، فكونه مقر اجتماع الخلية السرية للثورة لم يكن اعتباطا، بل هو تلميح ذكي من المؤلف، يحمل أكثر من رمزية، يقول السارد على لسان إحدى الشخصيات وهو عضو من أعضاء الخلية السرية : " اخترنا هذا المكان لاجتماعنا لأنه دار عمران وأمان". [2]

تبدو ملامح شعرية المكان جلية من خلال اختيار الراوي لبيت الجدة وما جرى فيه من أحداث ذات أهمية، بالإضافة إلى شخصية الجدة التي تعمل رمزية مكثفة، ونحن نقرأ الرواية، نحاول الوقوف على دلالة هذه الشخصية وعلاقتها بالمكان، وعليه أول ما يمكن أن نستشفه من القراءة التفكيكية، هو أن الجدة باعتبارها تدل السرد والهوية، وبالتالي الأصالة الجزائرية من عادات وتقاليد وأعراف، فشخصية الجدة تدل على التاريخ بكل

[1]- الرواية، ص 53.
[2]- الرواية، ص 135.

واقعه، والبيت يعبر عن السرية والأمان هكذا نقف على علاقة شعرية المكان بالشخصية التي ساهمت في البعد الدلالي للرواية وتشكيلها المتكامل، ويمكن أن نورد مثالا آخر في نفس السياق دائما، يتمثل في قول الراوي: "ولعله، لتمركز اهتمامي على أسباب الحروب ومخلفاتها وبالتوسعات الاستعمارية والاستيطان الجديد في فلسطين، ... كنت قد حملت من ذلك الانشغال في عطلتي الصيفية لسنتي الثانية، أثرت بعضه لجدتي لالة ربيعة بنت الفضيل وأنا أتناول معها، على الزربية في غرفة الجلوس ببيتها في الدرب، طبقا من الكسكس بالعسل والرايب حضرته بيديها في قصعة خشبية صغيرة، فحدثتها عن أن مدينة سعيدة الحالية، لأني قرأت ذلك في أحد الكتب التاريخية، لم تكن في الأصل سوى مجرد حامية بناها عسكر الاحتلال ... "[1] ، يجسد الراوي الدور البارز لشخصية الجدة التي ترمز إلى التاريخ والأصالة، كما تعكس هذه الشخصية البعد الاجتماعي والثقافي الجزائري، وذلك من خلال سيمياء الأسماء، كذلك العادات والتقاليد الراسخة، فالروائي مثل هو نفسه بصفته السارد، مثل الفرد الجزائري المثقف، وذلك من خلال اهتماماته الفكرية، التي تجلت في الحوار الذي دار بينه وبين الجدة بخصوص تاريخ سعيدة والجزائر ووهران ومعسكر، وذلك إنما يدل على الوفاء للتاريخ والتمسك بالهوية، والتحدي من أجل البقاء والاستمرارية إذن شخصية الجدة تحمل تكثيفا رمزيا للتاريخ، والبيت (بيت الجدة) إنما يدل على الأرض الوطن، ومنه فالجدة عندما توصي بهذا البيت للحفيد أرسلان الذي يرثه بعدها، فهي إشارة رمزية إلى الحفاظ على الأمانة التاريخية والإخلاص للوطن، إذ عبرت أنا الراوي عن الضمير الجمعي والوعي الجماعي بضرورة التمسك بالوطن والهوية.

هكذا تمكن المؤلف من توظيف لعنصر المكان وعلاقته بالشخصية من التعبير على رؤاه وتوجهاته الفكرية في هذا العمل السردي فتجلت بذلك العديد من الأنساق الفكرية المتوارية خلف الخطاب فتجسدت بوضوح. علاقة شعرية المكان بالشخصية. ومنه اكتسب الرواية دلالة وجمالية مفارقة، ليجد بذلك المتلقي فاعلية القراءة والتأويل فهذا النص الروائي، نص منفتح على عديد القراءات ....

3– علاقة شعرية المكان بالحدث :

يعد الحدث من أهم عناصر السرد الروائي، بحيث يكتسب المكان أهميته من خلال الأحداث الجارية فيها، ف "حيث لا توجد أحداث، لا توجد أمكنة".[2]

والدارس لرواية " أنا وحاييم " للحبيب السائح . يقف على زخم التنوع المكاني التابع من اللغة الحكائية المستخدمة من قبل المبدع، والتي يفضلها، صاغ فضاءات السرد في صور متفاوتة من حيث فنيتها ووظيفتها

[1]– الرواية، ص 102.

[2]– نقلا عن حسن بحراوي، مرجع سابق ، ص 30.

الدلالية وقدرتها الإيحائية فالمكان الروائي يكتسب معناه من علاقته بعناصر السرد الأخرى، ليصبح هذا الفضاء يرمز إلى القيم الإنسانية والرؤى السردية للمؤلف، ومما لاشك فيه أن الروائي أبدع في عمله السردي، بحيث اتخذ من تاريخ الجزائر مادة الرواية المتمردة ....، وتحديدا فترة ما قبل الاستقلال وما بعده، من سنة 1944 إلى سنة 1965، معيدا قراءة بعض الجوانب التاريخية من منظور رؤيوي متفرد، فعالج بعض القضايا بضمير جمعي، محاولا كسر الصورة النمطية عن الآخر بوعي جماعي والجدير بالذكر، أن الروائي اشتغل على تنوع الأمكنة، وبالتالي تنوع الأحداث، فاستطاع صياغة فضاءاتها وفق ما يتماشى والشخصيات والحوادث السردية فتشكلت روايته من أماكن واقعية وأخرى تخييلية، وهو ما ساهم في جمالية ورمزية الأحداث، ذلك لأن المكان الروائي يمتاز بصيغة استثنائية " فهو ليس مكانا معتادا كالذي نعيش فيه أو نخترقه يوميا، ولكنه يتشكل كعنصر من بين العناصر المكونة للحدث الروائي، وسواء جاء في صورة مشهد وصفي أو مجرد إطار للأحداث، فان مهمته الأساسية هي التنظيم الدرامي للأحداث." [1]

وقد وظف الروائي عنصر المكان في هذا العمل السردي كإطار للأحداث المتواترة، والتي تعبر -دون شك- عن مدى وعيه بأهميته في علاقاته المختلفة بعناصر السرد الروائي، بحيث انطلق من خلفيات ومرجعيات متعددة لبث خطابه الحضاري بطريقة إيحائية رمزية .

وبما أن الكاتب جعل من تاريخ الجزائر -كما سبق الذكر- مسرحا لأحداث روايته، فإن صياغته للمكان الروائي مستمدة من جغرافيا الجزائر، وهذا في حد ذاته يحمل دلالات وأبعادا مختلفة ولعل أبرزها البعد التاريخي ومدى تمسك الكاتب بهويته زيادة على الأبعاد الأخرى التي يقف عليها المتلقي في قراءاته المختلفة لهذا النص.

ويجب الإشارة هنا، إلى أن الروائي لا يوظف المكان كشكل هندسي، بل إنه يشكله بطريقة شعرية مسافرا به من عالم الواقع إلى عالم الخيال فتتعدد بذلك صوره وتتنوع، فيخترق بعده الفيزيائي إلى معان رمزية وجمالية.

وتتباين صور المكان من مبدع لآخر، ويعود ذلك إلى ملكة الخيال، واللغة الشعرية، بحيث أن لكل مبدع لغته الخاصة، كما أن " الشعر، من خلال جدة صوره، هو دوما أصيل اللغة". [2]

ويمكن القول أن الفضاء الروائي في رواية (أنا وحاييم) يزخر بحمولة دلالية، زادت علاقته بالحدث، من إشعاعها وتجليها ومن الأمثلة التي يمكن أن نوردها من الرواية، والتي تدل على علاقة الكاتب نصه السردي إذ

---

[1]- حسن بحراوي، مرجع سابق ، ص 29-30.

[2]- غاستون باشلار، مرجع سابق، ص 20.

يقول : " تقدمت، وعند الباب الصامت، ذاك الذي رأيت حاييم يخرج منه بمحفظته قبل ثمانية وعشرون عاما، كي نتوجه معا لأول مرة إلى مدرسة جول فيري..". [1]

ويضيف قائلا: "...ثم دخلت فانتابني مرة أخرى شعور، ولم ينتبني حتى في يوم عودتي إلى دار جدتي بعد وفاتها.."[2]

يبدأ الراوي إذا روايته بهذه المقاطع السردية التي أجاد التعبير عنها، من خلال رؤية مشهدية استلهمها من لغته الشعرية جاعلا من بيت حاييم حدثا ينطلق منه ليسرد محطات عديدة من حياته جمعته وهذا الصديق الذي ابتدعه ليسرب به منظوره الخطابي برؤية حضارية انفتاحية معاصرة تدعو إلى تقبل الآخر والتعايش السلمي التفاعلي، ورفض المقولات التي تتهكم على الأديان، وضرورة تصحيح المغالطات التاريخية، وهذا ما حاول الروائي توضيحه وطرحه من منظور حضاري إنساني، متخذا من شخصية حاييم عينه لهذا الآخر الذي مثله فئة يهود الجزائر، وعليه جاء هذا النص الروائي توضيحية وطرحه من منظور حضاري إنساني، متخذا من شخصية حاييم عينة لهذا الآخر الذي مثلته فئة يهود الجزائر، وعليه جاء هذا النص الروائي كمرافعة عن هذه الفئة، ودعوى إلى تجاوز الصورة النمطية عن الآخر والتأكيد على أن الاختلاف قيمة إنسانية حضارية .

ومنه فعلاقة شعرية المكان بالحدث تبدو جلية، أولا من خلال ارتباط الكاتب الروحي بهذا المكان، وثانيا بأهمية الحدث الذي انطلق منه ليحكي باقي هذا العالم السردي، الذي أبدع في تصويره بلغة شاعرية تستثير القارئ، فيجد نفسه بطريقة ما، مشاركا في هذا النص الإبداعي.

يقف المتلقي لهذا النص السردي، وبشكل جلي على ثرائه اللغوي، وتنوعه الفكري والدلالي، بحيث حقق كاتبه مبدأ الحوارية تنفي فيه تلك الحدود الفاصلة بين الأنواع الأدبية، فيصبح النص الإبداعي الروائي خاصة، يجمع العديد من الأنواع الأدبية التي يوظفها المبدع لتكثيف جملة من الدلالات عن طريق لغة رمزية مميزة بالإضافة إلى التأثير والتأثر والتمازج الفكري.

يمكننا القول من هذا المنطلق، أن رواية (أنا وحاييم) تنتمي إلى الأدب المتعدد الأنواع، وفق ما هو متداول في المعايير النقدية المعاصرة، وهذا يدل على تمكن الروائي إبداعا وامتلاكه لغة شعرية متفردة، والتي بفضلها تمكن من صياغة أحداث الرواية بطريقة شعرية. كما ساهم تنوع الفضاء المكاني وعلاقته الشعرية بهذه الأحداث، في توضيح رمزيتها، والإيهام بواقعيتها، ويمكن أن نورد المقطع الموالي، والذي ينم عن علاقة شعرية المكان بالحدث، فنجد الراوي يقول: "ثم انعزل في المكتبة لمدة ساعتين بين العاشرة ومنتصف الليل، فاستحضر على دفتر لولبي كبير

---

[1]- الرواية، ص 11.

[2]- الرواية، ص 11.

أياما أخرى من تلك التي تركت أثرا لها في وجداني .... على إحساس بمرارة، على بداية سرقة تاريخية لما أثمرته تضحيات سبع أعوام بالدم...". [1]

إن الروائي وعن طريق هذا المقطع السردي الوارد في بداية الرواية يسعى بطريقة ذكية إلى الاستحواذ على ذهن قارئه، الذي يتهيأ ذهنيا إلى أن الكاتب يضع عالم السردي في إطار تاريخي، لكن سرعان ما يخترق أفق توقعه، وتحدث المفارقة ومنها تنبثق الجمالية ولعل علاقة شعرية المكان بالحدث تتجلى من خلال هذا الفضاء المغلق أي المكتبة والتي يدل امتلاكها على مدى ثقافة ووعي الفرد الجزائري كما يمكن أن يحمل هذا الحيز المكاني دلالة التاريخ والذاكرة الجماعية للشعب الجزائري، والتي عبر عنها الراوي عن طريق الأنا الجمعي.

بحيث يذكر السرقات التاريخية وبعض الخيانات والخيبات التي جاءت بعد التضحيات الكبيرة في سبيل مجتمع جزائري مبني على التعايش السلمي بعد الثورة، ونبذ العنصرية.

ويقدم الروائي نصه هذا مسائل التاريخ الذي اشتغل على استغلاله كمادة سردية، دون التصرف في وقائعه وحقائقه الثابتة، بل تطرق إليه بقراءة معاصرة، مسربا من خلاله صورة الآخر ودوره الفعال في التاريخ الجزائري، وهو بهذا يؤكد خطابه الإنساني الذي يدعو إلى تقبل الآخر من منطلق التعايش السلمي كمبدأ إحضاري، وبالتالي طرق قضية الصدام الفكري وهاجس الآخر، ومحاولة التأسيس لمنظومة قائمة على النقاش والحوار الفكري، في ظل التسامح الديني والتفاعل الاجتماعي.

يحاول الكاتب (الراوي) من خلال المقطع السردي السابق سرد تفاصيل حياته بمعية حاييم، بإطناب وهو ما دل عليه قوله: (دفتر لولبي كبير) وكأنه سير ذاتي وهذا يدل على أهمية شخصية حاييم التي راهن عليها في كامل الرواية، انطلاقا من العنوان، ليبث عبرها خطابه الرؤيوي الرمزي.

ويواصل الروائي سرد أحداث روايته التي أبدع في تصويرها بفضل ما أوتي من لغة إيحائية وحسن توظيفه لتقنيات السرد، من استرجاعات واستباقات ووقفات، زادت المبنى الروائي دلالة وجمالية، إضافة إلى الوصف الدقيق والرؤية المشهدية التي تجلب المتلقي، وتكسب الأحداث واقعيتها، فمن خلال الاسترجاع السردي، يعود بنا الراوي إلى محطات طفولته وصداقته مع حاييم إلى درجة أنه يجعلنا كقراء، نشاركه وجع الذكرى والحنين، إذ يكثف لنا ماض بعيد، كانت مرحلة الثورة وزمن الاستقلال أرض الأحداث، التي تجري في فضاء مكاني، تجمعه بينهما معان رمزية تتجلى من تداول هذا الخطاب أو ذاك، ومحاولة تفكيك شفراته والروائي يبدو على وعي كبير بأهمية المكان، لذا اشتغل عليه كلغة وآلية خطابية وليس مجرد تشكيل هندسي، وهو بهذا استفز قارئه بكثير من لذة القراءة

---

[1]- الرواية، ص 19.

والتأويل والوقوف على الشعرية، ذلك لأن " الفضاء الروائي ليس مجرد تقنية أو تيمة أو إطار للفعل الروائي، بل هو المادة الجوهرية للكتابة الروائية، ولكل كتابة أدبية. فقط تحتاج هذه المادة كي تدرك إلى توجه مختلف إلى منظور متفهم ورؤية عاشقة. ومن ثم يتعين أن نرتقي في قراءاتها الأدبية بفضاء من مستوى ابتذاله الشائع لدى عموم القراء (كصفحات زائدة لا يهم إن ألغيناها، هو الحكاية !!) إلى مستوى التثمين الجمالي الضروري". [1]

يوضح هذا القول بشكل كبير أهمية الفضاء في الكتابات المعاصرة، وضرورة رفع المتلقي لمستواه الثقافي وبالتالي التأويلي، لأن المبدع حين يكتب، إنما يحاول مخاطبة قارئ مثقف، يمتاز ببعد نظر تحليلي، حتى يستوعب ويكشف الدلالة المضمرة التي يكتفها هذا الحيز المكاني أو ذاك، والحبيب السائح يحاول من خلال الفضاء التخيلي في رواية (أنا وحاييم) محاكاة فضاءات واقعية كانت بئرة صراع بين الأنا والآخر (فرنسا والجزائر) بالإضافة إلى الأمكنة الأخرى التي صاغها لتكون آلية خطابية مضادة، فحققت وجودها بما شحنها به من حمولة تاريخية، وهذا ما يكسبها مصداقيتها.

ويستغل الكاتب علاقة شعرية المكان بالحدث، فيصور لنا بالتفصيل مظاهر الظلم والظلمات، وهو اتسمت به السياسة الاستعمارية تجاه الأهالي، إذ هيمنت على جميع المجالات بكل عنصرية، واحتكرت التعليم والعلم، وهو ما صرح به الكاتب الذي عانى من الميز العنصري والتهكم الديني الذي تعرض له هو وحاييم في كامل مراحل التعليم من المدرسة الابتدائية (جول فيري) إلى الجامعة، إذ يقول السارد : " لكن ما وقع هو أني منذ ليلتي الأولى وجدت نفسي، مثل حاييم وبقية التلاميذ، خاضعا لصرامة النظام الداخلي الذي يحدد النوم والاستيقاظ والغسل والإفطار والغداء والعشاء بميقات إلزامي ...." [2]

يصور لنا الراوي، المعاناة التي يتعرض لها الفرد الجزائري مقابل التعليم، وهو يتحدث عن ثانوية معسكر ذات النظام الداخلي الصارم، والراوي وصديقه، يمثلان عينه من هؤلاء الشباب الذين يكابدون من أجل التعليم، لذلك كان قلة من الأنديان يدخلون تلك الثانوية، كما أن أغلبهم لا يواصل تعليمه بسبب العنصرية والصرامة، يضيف السارد مقطعا آخر يدل على التمييز العنصري، وقمة اللاإنسانية في التعامل مع الأفراد، والتحريض على الصراع الديني : " ولكن قل لي، ما طبيعة هذه العلاقة التي تربطك بمسلم غير فرنسي ! أنت حاييم مواطن فرنسي أعلى من أرسلان حنيفي درجة ! فكيف تقبل مصاحبة أندي جان مثله والحديث إليه بتلك اللهجة كأنه أحد أفراد عائلتك". [3]

---

[1]- حسن نجمي، مرجع سابق ، ص 59-60.

[2]- الرواية، ص 21-22.

[3]- الرواية، ص 31.

يستغل الروئي هذا الفضاء المكاني، ليعبر من خلاله عن هذا الحدث الذي يبدو بسيطا بالنسبة للمتلقي، ولكنه يحمل أبعادا عديدة، ومنطقا يؤسس الكاتب من خلاله لفكرة التعايش والتسامح الديني، وتظهر علاقة المكان بالحدث من هذه الدلالات إذن، إذ القول في هذا المقطع السردي يعود لشخصية مسيو ويل وهو من الأقدام السوداء، يخاطب به حاييم، فمن خلال التفاعل بين المكان المتخيل والحدث نقل لنا السارد واقعا اجتماعيا مكثفا، هو واقع التعليم إبان الاستعمار.

ونفس القول ينسحب على التعليم الجامعي كذلك، وما عرفه من عنصرية وإقصاء صريح لفئة الأهالي والمسلمين خاصة، والشاهد الآلي يلمح إلى ذلك، يقول الراوي: " .... فإني دهشت لأستاذ المنطق والفلسفة الإغريقية الذي كان، في إحدى محاضراته، فتح قوسين تحدث بينهما لأول مرة، عن خطر محدق ولازب، إن لم يتم الاستباق إليه، سيهدد الآثار الحضارية والثقافية الأوروبية وإنسانها نفسه في أرض، مثل الجزائر، أخرجها من العدم إلى الوجود البشري بتضحياته وفكره ولغته، بل إني أحسست من ذلك صدمة لم أخفها عن سيلين شوفالييه بجانبي في المدرج إذ قلت لها، .... إني لم أكن أنتظر من السيد فيليب هنري يحيد عن الموضوع .... ردت بأنها هي الأخرى مندهشة مما اعتبرته لي انحرافا غريبا من الأستاذ". [1]

كما يضيف الراوي في هذا السياق أيضا قائلا: " ... هو ذاك الذي ظل، في جانب منه يشحن عزيمتي على أن أنهي سنتي الرابعة والأخيرة، في وقتها، برغم تصاعد درجة الكراهية حتى عند الأساتذة نفسهم فان ما سبب لي إحساسا بالإقصاء المؤلم، كما كاشفت حاييم، هو تشدد الأستاذ فيليب هنري معي، لا في التقويمات فحسب ولكن في المناقشة. فان هو رد على أسئلتي أو تعليقاتي سفه رأيي حينا، وحينا تجاهلني". [2]

عبر الراوي في هذين المقطعين السرديين على واقع التعليم في الجزائر في فترة الاستعمار، وما تميزت به سياسة المستعمر من ظلم واستبداد وهو ما سجله التاريخ الجزائري، وهذا ما يحاول المبدع صياغته من زاوية نظر خاصة به، ومن خلال أناه، تمكن من مقاربة العديد من القضايا المتعلقة بالأنا الجمعي أي الشعب الجزائري، وعلى رأسها التعليم، الذي أحتكر من طرف الآلات الاستعمارية، ولأهمية هذا الموضوع المطروق استغل الكاتب الفضاء الروائي الذي أشركه كعنصر سردي في الرواية ليكون الحيز الذي تدور فيه هذه الأحداث، وهو الجامعة، التي تلعب دورا بارزا إن على مستوى السرد، أو على الصعيد التاريخي الجزائري بالأخص، لأنها المكان الأكثر انفتاحا على الحريات والأفكار، لكنها الفضاء الذي عانى فيه الفرد الجزائري المتعلم بسبب العنصرية، وهو ما وقف عنده المبدع محاولا محاكاته ومقاربته بطريقة واعية، منتقدا تلك السياسة ضمنيا ومن هذه الزاوية تتبدى الشعرية من

[1]- الرواية، ص 115.

[2]- الرواية، ص 127-128.

علاقة المكان بالحدث حيث أن الكتاب ينقل لنا أحداثا تكاد تكون واقعية لأنها تلامس واقعا ساد وقت الاستعمار لما عرفته الجامعة الجزائرية من هيمنة وتجاهل الآراء للطلبة الجزائريين من قبل أساتذة فرنسيين وغيرهم، كما حدث لأرسلان من قبل أستاذه الذي يتجاهله ولا يقبل آراءه، صور لنا الراوي بطريقة فنية العلاقة المتوترة بين الطلاب الجزائريين والأساتذة الذين يعتبرون أن أوروبا هي مهد الحضارة ومنه إقصاء الفرد الجزائري وجوديا وفكريا ولغويا، وهو ما يستنكر هؤلاء الطلبة المثقفين الذين مثلهم الراوي.

صاغ الروائي من خلال هذا الإطار المكاني (الجامعة) أحداث السرد محاولا طرق موضوع الصدام الفكري والكراهية ونقد ذلك بشكل ضمني ساعيا إلى إرساء مبدأ تقبل الأخلاق لترسيخ خطابه القائم على التفاؤل والتبادل الفكري والتسامح الديني نلاحظ ونحن نقرأ الرواية أن الكاتب أحسن استغلال التنوع التشكيلي للمكان كعنصر هام في السرد بحيث شارك في جل أحداثها المتنوعة بتعدد رمزيته وأبعاده وذلك لأن "المكان في الرواية هو خديم الدراما فالإشارة إلى المكان تدل على أنه جرى أو سيجري به شيء ما، فمجرد الإشارة إلى المكان كافية لكي تجعلنا ننتظر قيام حدث ما وذلك أنه ليس هناك مكان غير متورط في الإحداث". [1]

فعن طريق المكان دائما يخوض، الحبيب السائح هذه المغامرة السردية التي تأخذ رمزيتها من الشعرية الفضاءات الروائية التي أبدعها وكذلك علاقاتها الرمزية المكثفة بعناصر السرد الأخرى خاصة الحدث الذي يعتبر العمود الفقري لفنية الرواية وأبرز مكوناتها وفي هذا الشأن بخصوص الحدث وأهميته يقول مهدي عبيدي بأنه : " مكونا رئيسيا وأحدى أهم عناصر الرواية، وهو العنصر الأخير من عناصرها: الزمان ـ المكان ـ الشخصيات ـ اللغة ـ الحدث، ويعد أبرز عناصر الرواية لأنه يكون العمود الفقري لمجمل العناصر الفنية السابقة". [2]

تتجلى أيضا علاقة شعرية المكان بالحدث بما يحاول المبدع رصده بلغة إيحائية تضفي طابع رمزية وجمالية على هذا البناء السردي، وسعى إلى ترسيخ مشروعه الثقافي وضرورة إقامة علاقة تفاعلية بين الأنا والآخر، وهو في ذلك يستند إلى التاريخ بما يحمله من حقائق ويحاول مقاربته بقراءة حديثة، فيوظف الجامعة مثلا بالإضافة إلى أماكن أخرى، كون هذا الحيز المكاني يجمع العديد من المتعلمين والمثقفين، وبالتالي ثراء الأفكار وتعدد الرؤى، لكن الراوي يجد نفسه يتعرض إلى إقصاء معلن، وهو ما تغذيه الكراهية والتمييز العنصري، وقد نجح في تجسيد هذه الوقائع، مستغلا هذا الفضاء متطرقا إلى قضايا جوهرية كضرورة سماحة الإنسان، والتسامح الديني، كما عرج بالحديث عن الصراع شرق غرب وأسباب الحروب، مبتدعا بخطابه هذا، شخصيات تستدم فكريا أحيانا وتتوافق

[1]– نقلا عن: حسن بحراوي، مرجع سابق ، ص 30.

[2]– مهدي عبيدي، مرجع سابق، ص 207.

. لتدعم رؤى الكاتب ومثال ذلك سيلين شوفالييه الشيوعية التي لعبت دور المتعاطف سياسيا مع القضايا العادلة مثل قضية الجزائر.

وبخصوصها يقول الراوي: "فسيلين ضلت الوحيدة، من بين طلبة الفلسفة التي تدافع عن النقاشات الفكرية كلما شب خلافا بيني وبين بعضهم، من المسيحيين المتعصبين، حول الخلق والعدم و نشأت الإنسان ومصادر المعرفة. فهؤلاء كانوا لا يتباهون عن وصف سيلين بالملحدة، وإما أنا المسلم بالنسبة إليهم فكافر بطبعي – أبتسم لأني تذكرت أن جدتي كانت تطلق صفة الكافر نفسها عن أي فرنسي". [1]

يجسد لنا الراوي بهذا الحدث السردي، الحوارات الفكرية والثقافية بين الطلبة وكذا أزمة المثقف الجزائري زمن الاستعمار، وما تعرض له من تمييز عنصري بالإضافة إلى مصادرة أفكاره، فالطالب الجزائري المسلم خاصة، عانى من كل أشكال التجاهل والعنصرية، ومن خلال شخصية سيلين المساندة لفكرة التحرر، يدعم الكاتب أٍراء الأفراد الذين يسعون إلى الحرية ويطالبون بالعدالة، وهو بهذا صورة شاملة للشعب الجزائري الذي يقاوم من أجل الاستقلال والحرية، كما يتطرق كذلك الروائي إلى التهكم الديني، الذي تغذيه المسابقات التاريخية . والصور النمطية عن الآخر بسبب التفكير الأحادي الرجعي.

فمن خلال هذا الفضاء المكاني في علاقته الوطيدة بالحدث، يستشف القارئ العديد من الدلالات والمعاني التي صاغها الكاتب رمزيا لا تعبيريا فحسب، وهو ما خلق شعرية مميزة.

إن الروائي وباختياره للإطار التاريخي، تمكن من ملامسة الواقع الجزائري الفعلي، فجاء نصه مستوحى من أحداث ووقائع حقيقية، صاغها في نص إبداعي يكتسب جماليته وشعريته من اللغة التخيلية التي ساهمت بالدرجة الأولى في براعة تصوير المكان ومجريات الأحداث.

ولأن الحدث لابد له من مكان حتى يكتسب دلالته، فالكاتب على درجة من الوعي الإبداعي، والقدرة التخيلية في إنتاج فضاءاته السردية، والتي نقف على شعرية علاقتها التفاعلية مع الأحداث من زاوية القراءة التفكيكية لمقاصد المبدع.

نحاول الوقوف عن هذه العلاقة، عند الشاهد التالي: "ذلك لأن الطلبة المسلمين طرف اجتماعي غير مندمج في الجامعة، فقد أدرجوا في كيلتاها، وتم قبولهم كما يقبل الوجع الذي لا مناص منه، وفي إمكانهم متابعة الدروس في كليتاها ومعاهدها. ولكنهم معزولون عن الحياة الطلابية من طرف أساتذتهم، أحيانا ومن طرف

[1]– الرواية، ص 117.

زملائهم غالبا، والجامعة كما الحياة الجامعية، لا تقدمان أي مبادرة لكسر الحواجز التي تقسم الجزائر بل إنهما تبلورانها وتدعمانها". [1]

يسند السارد القول في هذا المقطع إلى شخصية الصادق، هذا الطالب الجامعي، الذي ينتمي إلى عائلة متعلمة مثقفة، يدرس الطب كتخصص في الجامعة ها هو كذلك لا يقل أهمية عن الشخصيات السردية الأخرى، التي أحسن المبدع خلقها وتوظيفها، فهذا المقطع السردي واحد من الآراء والطرحات الأخرى التي يتناولها الطلبة بالنقاش الفكري في نادي الطلبة المسلمين، بالإضافة إلى الندوات، التي فيها طرح بعض القضايا، والحوارات، رغم الصدام الفكري، فالكاتب، يجعل من هذا القضاء (النوادي) هي الأخرى، كآلية خطابية مضادة لكل انسداد حواري واحتكار فكري، التأسيس لمبدأ التحاور والنقاش الفكري والانفتاح الحضاري وعدم إقصاء الآخر، بسبب الدين أو العرق وهو ما يصح به السارد " وهل النادي مسجد حتى أدعوك إليه!" [2]، ردا على قول حاييم: "وما دخل يهودي مثلي في نادي الطلبة المسلمين!". [3]

يشير الكاتب إلى أن للمسجد رابطة وشروطه، أما النادي فهو مفتوح للحوار والنقاش والتبادل الفكري، وتقبل الآراء دون التطرق أو التمييز العنصري، وهذا ما يسعى الراوي إلى تأكيده في خطابه الثقافي هذا، القائم، التفاعل، والتواصل، والتسامح الديني وتقبل المختلف دون اعتبار للدين والعرق .

أمثال المناضلة زليخة التي أصيبت اثر قيامها بتنفيذ عملية ضد المفتش آلان بورسييه بطلب من سي فراجي الذي يراس الخلية السرية يقول السارد: "بعد أيام عاد سي فراجي إلى البيت واستأذن من الأم أن يختلي بزليخة في غرفتها وهناك طلب منها أن تنفذ المهمة ثم سلمها صورة نقشت ملامحها في ذاكرتها وأعادتها له فذكر لها اسم آلان بورسييه، وعين لها مساره وعنوان بيته وكان الفعل وتوقيته فتمثلت ذلك كله، ثم حدد لها مخططا لانسحابها بعد التنفيذ، فقبلت بلا تردد". [4]

يواصل الكاتب تجسيد صورة المرأة الشجاعة الجندية التي تتمثل للأوامر العسكرية بكل جرأة، وتتفوق حتى على الرجال في ذلك، أحايين كثيرة، وهذا ما يؤكده ما قامت به البطلة من ملاحقة المفتش فأطلقت النار عليه، إلى أن سقط أرضا، وكانت نهايته، لأنه قتل والدها إلى جانب العديد من الأبرياء، وهو يمثل العدو القاتل.

---

[1]- الرواية، ص 94-950

[2]- الرواية، ص 90.

[3]- الرواية، ص 90.

[4]- الرواية، ص 181.

ويضيف الراوي، جاعلا من المكان المتعدد في الرواية مسرحا لمختلف الأحداث: " لتتأكد، قاطعت زليخة آلان بورسييه في شارع إيزلي الغاص في مساء ذلك السبت الخريفي، البارد واجتازت إلى الرصيف الأخر ودارت فأسرعت خطاها، صارت الآن في تواز مع آلان بورسييه، راقبته .. عاجلته بطلقة أولى فثانية، ترنح وكأن قد أخرج مسدسه، أطلقت الثالثة، لم تسمع شيئا، أحست فقط مثل وخز في ساعدها". [1]

حتى النهاية، بحيث اتسمت الأحداث بشيء من الإثارة، وهو ما صوره الراوي من خلال أفعال وحركات عسكرية قامت بها زليخة، للتخلص أخيرا من هذا القاتل، ولأن الشخصيات في الرواية تتطلب فضاءا مكانيا تتنقل فيه وتقوم بالحدث، صاغ الكاتب فضاءاته بعناية، بالإضافة إلى الأحداث التي تربطها علاقة رمزية بها، "ويفرض الحدث بعض التنقلات في الأمكنة وتنوعها وتنوع الحدث وتحريكه، ويصعب أن نجد رواية تجري أحداثها في مكان واحد". [2]

وهذا ما نقف عليه ونحن نقرأ الرواية، فالروائي اشتغل على المكان في نصه ونوع تشكيلاته، فاشتغل هذا العنصر بأبعاده المختلفة ووظفه كلغة شعرية، وليس مجرد بناء هندسي وهذا منبع الشعرية والجمالية، وبتفعيل المكان دائما ينقل المبدع قارئه إلى أجواء الرواية ومتابعة أحداث السرد بشغف، وهو ما نتلمسه في جل المقاطع السردية.

فمن المقطع السردي السابق نجد علاقة هذا المكان (الشارع) بالحدث تتجلى، لتكثف العديد من المعاني التي أراد المبدع التعبير عنها بطريقة غير مباشرة تكتشف من القراءة التفكيكية لبنيات السرد، بحيث عبر عن هذا الحدث فصور لنا هذا الفضاء الذي جرى فيه، والذي ابتدعه بفضل لغته الرمزية لينقل لنا دائما عينة لجل الأماكن زمن الاستعمار وكيفية مواجهة المجرمين، كما جعل أيضا من بيت والدة زليخة (غزالة) بيت أمان وسرية، إذ به طلب سي فراجي من زليخة تنفيذ ذلك الأمر.

هكذا فالروائي يجسد صورة المرأة الجزائرية، ويرفع من شأنها بلغة رمزية راقية، ويستدل على ذلك من حضورها الفعلي ودورها الفاعل في الجهاد والثورة إلى جانب الرجل، بالإضافة إلى وفائها للرجل، وهو ما يتجلى من الرواية يسافر بنا الراوي إلى حيز مكاني آخر مشارك في ذات الحدث، هذا الحيز الذي جعله على قدر كبير من الأهمية، متمثل في صيدلية حاييم، هذه الشخصية التي هيمنت على الرواية، فكتب لها الخلود سرديا نظرا للسياق التاريخي الوارد فيه، بالإضافة إلى دورها الفعال في الثورة، وذلك من حيث المكان والوظيفة التي شغلتها، فكل هذا يأخذه الروائي دليلا ليثبت به فنيا رؤيته السردية المضمرة وراء الخطاب.

---

[1]-الرواية، ص 181-182.

[2]- مهدي عبيدي، مرجع سابق، ص 218.

وتظهر الشعرية في علاقة المكان بالحدث فتزيد من جمالية السرد وتماسكه، كما أن كل من المكان والحدث تتحد قيمته بالتفاعل بينهما.

نجد الراوي وكمثال آخر عن هذه العلاقة يوظف الصيدلية كحيز مكاني يعبر عن الثقة والسرية، كذلك بالإضافة إلى تقديم المساعدات بإرسال الأدوية إلى المناضلين في الجبال، كان كذلك مع مقرا لنشاط الجماعة السرية (مجموعة من المناضلين)، وهو من حيث الوظيفة والرمزية يعادل بيت الجدة والجبل، وهم من الأماكن الموظفة في الرواية ذات دلالة مكثفة، ومن هذا كله يكتسي هذا المكان شعريته، إذ يمكن عده لغة وآلية من آليات المقاومة، وهو ما أدى إلى حرقه بكل عنصرية.

ونقف عن أهمية هذا المكان الذي كان إطارا هاما للأحداث، يقول السارد: "دخلت الصيدلية من بابها الخلفي حسب مخطط الانسحاب، وجدت حاييم في انتظارها، أدخلها المخبر وربط على ساعدها ضمادة لإيقاف النزيف.." [1]، يتحدث الراوي هنا عن زليخة التي أصيبت في عمليتها ضد آلان بورسييه، والتي وجدت من الصيدلية ملجأ لها لتسعف من قبل حاييم بكل إنسانية وثقة، وتعود سريا إلى الجبل بكل شجاعة، رغم إصابتها، وهو تأكيد من الكاتب على بسالة المرأة وتضحيتها من أجل الوطن، كما يرسخ مكانة حاييم، الشخصية التي تكتسي أهميتها من وظيفتها السردية داخل الرواية، فمن خلالها يسعى الروائي إلى إبراز دور هذه الفئة تاريخيا والتأكيد على وطنيتها التي لا تشكيك فيها، وضرورة تجاوز المقولات التي تحرض على الكراهية بسبب اختلاف العرق والدين وتقويضها لأنها تعرقل كل تطور فكري وحضاري، ومن هذه القراءة تتجلى الشعرية في أبهى صورها، وتكتسب الرواية فنيتها.

نقف على العديد من المعاني التي يخلقها الروائي من علاقة شعرية المكان بالحدث، بحيث نوع تشكيلات الفضاء السردي الذي يمتاز بامتلائه الدلالي، وذلك من خلال تفاعل الشخصيات في إطار مكاني، فتتنوع الأحداث وتتصاعد وتتكثف حينئذ الرمزية، والكاتب ينسج أمكنته الروائية بلغة شعرية تميزه عن غيره، بفضل ما أوتي من قدرة على التخيل فينتج فضاءات ذات بعد جمالي ودلالي لا نعثر عليها إلا في نص إبداعي وبخاصة في الرواية، ذلك لأن المكان فيها "هو اللفظي المتخيل أي المكان الذي صنعته اللغة صناعة لأغراض التخييل الروائي وحاجاته، فالنص الروائي يخلق عن طريق الكلمات مكاناً خيالياً له مقوماته الخاصة وأبعاده المتميزة". [2]

وظف الروائي الحبيب السائح المكان وجعل منه لغة يعبر بها عن اتجاهاته بفكرية وأغراضه السردية، فاستحوذ على المتلقي وحرك فضوله بالقراءة والتأويل لهذا النص الاستفزازي، ويمكن أن نقدم مثالا عن المكان

1- الرواية، ص 182.

2- سيزا قاسم، مرجع سابق ، ص 74.

ودوره في الحدث في هذا المقطع السردي من الرواية: "... وكانت جدتي، قبل نزول أولئك الضيوف على بيوم انتقلت متعبة صحيا إلى المزرعة برفقة والدي، أجل انتظرت أصنافا من الضيوف.. إلا أن يكون ثلاثة .. رابعتهم فتاة .. إذ نطق أكبرهم "اخترنا هذا المكان لاجتماعنا لأنه دار عمران وأمان. [1]

يستوقفنا المكان في هذا المقطع السردي، إذ يكتسب أهميته من هذا الحدث الذي يسرده الراوي بلغة مثيرة تزيد من واقعيته، إذ ورد في سياق يحاكي الوقائع التاريخية، ومن خلال القراءة التأويلية البسيطة نحاول الوقوف على دلالة بيت الجدة وعلاقته الشعرية بهذا الحدث الهام، ونحن في ذلك نزعم أننا ربما قد يتمكن من استظهار المعاني الرمزية المكثفة من هذه العلاقة الشعرية لتوظيف هذا الفضاء المكاني، المتمثل في بيت الجدة، الذي يحمل رمزية التاريخ، تاريخ الجزائر الأصيل، ولأن التخطيط للثورة يتطلب مكانا آمنا وسريا، لذا كان بيت الجدة محلا كذلك، لأن دار عمران وأمان، كما ورد في قول رئيس الجلسة سي فراجي، ووظف الروائي هذا المكان ليكثف به العديد من الدلالات، فهو ليس مجرد كيان هندسي، بل هو من إنتاج خيال الروائي، يحمل الكثير من الرمزية.

كما أن الحوار الذي دار بين البطل أرسلان وجدته بخصوص تاريخ الجزائر، وقصة حرب الجزائر، بالإضافة إلى قصة تاريخ سعيدة والجزائر ومعسكر ووهران، يدل على مدى تمسك الجزائري بماضيه الأصيل، بتاريخه العريق والحفاظ عليه لأنه يعبر عن الذاكرة الجماعية لكل الجزائريين، هكذا إذن تمثلت علاقة شعرية المكان بالحدث من خلال الأغراض التي عبر عنها الروائي وأراد بثها إلى متلق معاصر يعي أوجه القراءة والتأويل لا يتوارى خلف هذا الخطاب بالصامت، وهنا مورد الشعرية والجمالية، ويضيف الكاتب موظفا هذا المكان (بيت الجدة) فيشحنه بزخم دلالي منطلقا من معطى تار يخي، ليرسخ به مبدأ الهوية والانتماء، وذلك من الحوار بينه وبين جدته حول تاريخ تأسيس مدينة سعيدة، يقول: "وإذا عرضت الرسمين على جدتي تأملتها في سكون، ثم أطلقت زفرة وأومأت بسبابتها، في حركة دائرية كل الأراضي الخصبة التي تراها الآن في ملكية الكولون كانت سلبت من أهالينا ! قالت ذلك بوقع." [2]

فالروائي يجعل من شخصية الجدة لغة يعبر بها عن الدلالات ذات صلة بالتاريخ والهوية، كما يرمز إلى تمسكه بأرضه مدينة سعيدة وهي تعبر عن الوطن، بحيث ذكر الجزء لكن أراد به الكل.

ينقلنا الكاتب عن طريق الخيال إلى هذا المكان (بيت الجدة) الذي يسوق من خلاله كيان سردي مكثف، من خلال حوار ثري بينه وبين الجدة، فتمكن كسارد عليم من توزيع الأدوار بين شخصياته وتنويع طبائعهم، فكل له موقعه من السرد، ليؤدي وظيفة دلالية معينة، ولهذا جاءت الأحداث متنوعة ذات أهمية، بحيث

[1]- الرواية، ص 134-135.

[2] - الرواية، ص 102-103.

شكلت شخصية الجدة الذاكرة الجمعية التي لا تنسى ولا يمكن تزويرها أو تحريفها، فقد عبرت على قوة التاريخ والحفاظ عليه، كما عبر بها السارد على مدى ارتباط الفرد الجزائري بتاريخه وأرضه حد التمازج، وهو يعبر عن وعي جمعي، يقول الراوي: "جسدي تحول قطعة من الأرض التي أنبتتها فارتبط أريجها من يومها في ذاكرتي بشدي مسك جدتي يضوع من ملابسها البيضاء ووشاحها الأخضر". [1]

بهذه اللغة الشعرية يصور لنا الكاتب ارتباط الجزائري بأرضه وتاريخه العريق، هكذا وظف الروائي المكان (بيت الجدة) ليسرد به أحداثا هامة، من هنا تجلت الشعرية، بحيث أصبح هذا الحيز يعبر عن إيديولوجية في الخطاب الرافض لكل أشكال الاستعمار، والسعي إلى تحقيق التمسك بالهوية والدفاع عن الوطن، وفتح مجالات الحوار وتقبل الاختلاف.

عن طريق توظيف عنصر المكان دائما، يستحوذ الروائي على قارئه، وذلك بما يكثفه هذا الحيز أو ذاك من رمزية وجمالية، لها علاقة بالأحداث السردية، بحيث أن هذه الأحداث مستوحاة من وقائع تاريخية وخصائص اجتماعية تعبر بصورة موازية عن المجتمع الجزائري إبان الاستعمار وبعده، ورصد التركيبة الاجتماعية والطبقية مثل القياد، العملية للكولون الموالية لنظام فرنسا، لكن المتلقي لهذه الرواية يقف على صورة مغايرة لما كانت تتصف به هذه الفئة، حيث أن الروائي حاول فنيا كسر الصورة النمطية لما تتسم به فئة القياد، فأوردها في سياق إيجابي مبرزا دعمها لفئة الأهالي، فاختزل هذه الطبقة في شخصية والده، يقول: "فوالدي ظل لا يظهر في كلامه مع غيره، دون والدتي، أي تعاطف اتجاه ج.ت.و بل إنه استمر كلما سنحت له الفرصة في مأدبة أو خلال اجتماع أو لقاء في سوق، يضمن أحاديثه رسائل إلى مسؤولي التراتبية العسكرية والإدارية في المدينة، ليطمئنهم على أنه لا يزال محل ثقتهم وأنه سيبقى إلى جانب فرنسا العظيمة، بينما كان غالبا ما أرسل عثمان إلى هذا الفلاح أو ذاك بمبلغ مالي يساعده على تسديد ديونه تجاه البنك أو على تخليص رهن...، وكان من حين إلى آخر، يرسل ليلا معونات إلى أكثر من عائلة في الريف يعرف أن رجالها التحقوا بجيش التحرير". [2]

يبدو القائد في هذا المقطع السردي، قد أورده الروائي يقوم بدور مزدوج، بحيث يمكن القول أن هذه الرواية حاولت رفع التهميش عن هذه الفئة، ونجد الراوي ينطلق من وقائع تاريخية ويعيد قراءتها بمنظور حداثي له مبرراته ودلالاته، فها هو يصور لنا القايد بصرامته وموالاته فرنسا، وفي نفس الوقت يذكر بالإعانات التي يقدمها للأهالي، كما يساعد الفلاحين على تسديد الديون، بإرسال خادمه عثمان، وذلك لأن هذا القايد يملك الأراضي والمال والجاه، وامتلاكه لمزرعة يدل على مكانته، وهو ما نستشفه من توظيف الكاتب للمزرعة كفضاء ساهم في

[1]- الرواية، ص 105.

[2]- الرواية، ص 191-192.

سرد هذه الأحداث، ويضيف الراوي قائلا عن والده وهو في الحقيقية يعبر عن فئة القياد بطريقة مضمرة، "والدتي التي أخبرتني يوما والدي إنما قبل مسؤولية قايد ليرد عن الأهالي غطرسة الكولون ويخفف عنهم ظلم الإدارة الفرنسية، طالما رأيت بعيني وجودها مجسدا في الحقول والمباني والمزارع تحررا ورفاها على حال الأهالي قهرا وفقرا". [1]

يأتي هذا المقطع كدليل على سبب قبول هذه الفئة أن تكون عميلا لفرنسا، بحيث يوظف الروائي فئة الإقطاعيين في روايته في صورة إيجابية، إذا يوضح من خلال هذا التمثيل الذي يستند على المرجعية التاريخية، يوضح النظام الطبقي الاجتماعي الذي تسعى عن طريقه فرنسا إلى التفرقة والعنصرية.

وتبرز علاقة شعرية المكان بالحدث من الخلفيات التاريخية التي تتكئ عليها الرواية، بحيث وظف الروائي المزرعة كحيز مكاني ليسرد هذه الأحداث، ويحاكي بعض الوقائع الواردة تاريخيا، مثل الحديث عن دور طبقة الإقطاعيين في تشكيل التاريخ الجزائري.

ومن خلال هذا المكان دائما واحتضانه لأحداث مختلفة صاغها الروائي بطريقة فنية، نجد أنفسنا ونحن نواصل قراءة الرواية في صفحات عديدة، مسكونين بجمال الوصف الدقيق للعادات اليومية من مأكل ومشرب ولباس يعبر عن الهوية الجزائرية، فالراوي تمكن من تجسيد بعد أنثرولوجي ثقافي، فينقل للمتلقي صورة مجتمع جزائري له ثقافة وعادات متجذرة في أعماق التاريخ، تعبر عن هويته وتعايشه في نسق اجتماعي، وهذا ما حاول الراوي أرسلان (البطل) تجسيده وتمثيله من خلال توظيفه للمكان (المزرعة) مهد طفولته وشبابه، والتي بها احتفل بزواجه من تلك الأنثى التي اختارها في الجبل زليخة بنت سي النضري، وهذا أكبر دليل على وفاء الرجل الجزائري، فالراوي ينقل المتلقي إلى أجواء الاحتفال والتحضير له، ويصور ذلك بلغة إيحائية جميلة، يقول: "إنها عادة عثمان، وقد اكتسبها من صرامة والدي، أين يتحرك بهيئة شيف ... لا ليقدم للضيوف انطباعا عن مكانة آل حنيفي فحسب، ولكن ليذكرهم أيضا بأنهم في حضرة سيد كان أول من دخل الجامعة من أبناء الأهالي المسلمين، وأوحدهم في المنطقة كلها، في زمن الاحتلال واختار بين أن يصير أستاذا أو يتجسس ليشغل وظيفة كبيرة، أن يرفع سلاح المقاومة". [2]

أراد الراوي من خلال هذا المقطع السردي أن يصور لنا كيفية الاحتفال والتحضير لأعراس الجزائريين في تلك المرحلة خاصة أبناء القياد، الذين يتمتعون بمكانة وجاه كبير، ويجسد لنا من خلال شخصية عثمان ما يقدمه الخادم لسيده، وعن طريق توظيف فضاء مكاني المتمثل في المزرعة، استطاع المبدع تكثيف القيم والعادات

[1]- الرواية، ص 299.

[2]- الرواية، ص 276.

الاجتماعية الجزائرية الراسخة، التي تعبر بحق عن بنية اجتماعية من الصعب أن تتخلى عن مبادئها المشكلة لهويتها، فالراوي (البطل) مثَّل الفرد الجزائري المثقف الوفي بمبادئه وانتمائه الهوياتي.

ويضيف الراوي قائلا بخصوص تحضيرات العرس دائما: "..وكلّف من عجنّ خبز المطلوع وأنضجنه، ودلكن المسمن وقلينه، ومن أشرفنّ على تحضير الحريرة، ومن الرجال من قاموا بشواء واحد وعشرين خروفا وإعداد سفافيد ملفوف الكبد في باحة المزرعة، على جمر حطب الفرنان ونبات الشيح، فانتشرت رائحة ذلك في أرجاء المزرعة" [1] ، ويضيف: "وكما تقتضيه لياقة العرف، وقفت في مدخل الخيمة الوبرية الكبرى المضروبة في حوش المزرعة، المطيبة بعود القماري، المفروشة بزراب حمراء ووسائد مرقشة". [2]

يأخذنا الروائي من خلال ما تضمنته هذه المقاطع السردية، إلى السفر في عوالم هذا الفضاء الذي عرف كيف يوظفه جماليا، من دقة الوصف إلى إيراد التفاصيل الدقيقة، بحيث امتلآ هذا المكان بدلالات رمزية ساهمت في سير الأحداث وشكلت رمزية المكان وشعريته علاقة ربط وتكاثف دلالي بين الأحداث السردية، فمن خلال هذا الفضاء الروائي (المزرعة)، تطرق الروائي إلى وقائع هامة على مستوى سيرورة السرد، وكذلك على نطاق الرؤية السردية، وما أراد الكاتب به عبر هذا العالم السردي، وعليه فقد يمكن عدّ هذه المقاطع من الرواية، بمثابة وثيقة أنتربولوجية للمجتمع الجزائري، بحيث وفق الروائي في رصد العادات والتقاليد والأعراف التي تطبع مجتمعنا، والتي تعبر عن الذاكرة الجمعية له.

يتحدث البطل أرسلان في مقطع آخر عن نفسه، إذ بدا ببرنوسه ممتطيا حصان والده، والذي يمثل قيمة معنوية، وفي خضم هذا الاحتفال، يتقاسم فرحه مع الصديق والرفيق حاييم، هذا المختلف دينيا، والمتصالح معه إنسانيا وثقافيا، ووطنيا (الوطن همهما المشترك)، يقول الراوي: "حتى إذا ظهرت بالعمامة والبرنوس، ممتطيا حصان والدي بسرجه المطرز بخيوط مذهبة وركابيه الفضيين، حاملا بندقية من نوع الزويجة، ارتفعت لي بطلقة بارود مشتركة، تحية الخيالة الذين انضم إليهم حاييم على حصاني الشخصي ببندقيتي..." [3] ، يعبر هذا المقطع إذن، على مدى ارتباط الجزائري بإرثه وأصالته، إذ يكثف لنا الراوي عبر أناه، الضمير الجمعي الجزائري، وما امتلاكه لحصان والده وبندقيته، إلا صورة عن قيم معنوية يتوارثها الابن عن والده، كما يجسد للمتلقي أصالة الجزائري وعزته وانتمائه إلى تاريخ بطولي، كذلك تظهر العلاقة الوطيدة بين أرسلان وحاييم، بحيث انضم على حصانه الشخصي وبندقيته، وكأنهما شخص واحد، وهي إشارة من الراوي إلى تقبل الاختلاف والتعايش بشكل طبيعي مع الآخر.

---

[1]- الرواية، ص 277.

[2]- الرواية، ص 277.

[3]- الرواية، ص 278.

ما يمكن قوله هو أن توظيف المبدع لهذا الفضاء (المزرعة) شكل ميزة خاصة في علاقته الشعرية بالأحداث، فهو لم يشغل في الرواية كمساحة جغرافية جامدة، وإنما جعل منه الروائي لغة رمزية إيجابية، وأداة لتجسيد مظاهر وعادات مجتمع جزائري، مر بظروف استعمارية قاسية، ويمكن القول كذلك أنها دعوى إلى الوقوف في وجه المشككين في تاريخه، ومحاولة من المبدع إلى ترسيخ مبدا الهوية، والتمسك بالقيم الاجتماعية في ظل ما يعرفه العالم من حركية في أنماط التفكير، وضرورة التغيير الإيجابي الذي يتيحه التواصل الحضاري، من منطلق معرفة الآخر والتفاعل معه.

إن المتلقي لهذا النص السردي لا يفوته الوقوف على المرجعيات المختلفة التي تبناها الروائي واستند عليها في تشكيل منجزه هذا ولعل اهم هذه الخلفيات نجد الخلفية التاريخية، إذ تبدو وقائع وأحداث هذه الرواية مستوحاة من وقائع تاريخية حاول الروائي محاكاتها بلغة شعرية، توهم القارئ بواقعية الأحداث وليس هذا فحسب، بل إن المبدع صاغ فضاءه المكاني في تشكيلات متنوعة ذات بذخ دلالي جلي.

ونحن إذ نواصل قراءة هذه الرواية سيتوقفنا هذا الحدث البارز الوارد في صفحاتها الأخيرة، والذي جسد الراوي مستغلا عنصر المكان دائما كإطار للأحداث وهذا الحدث تمثل في محاصرة بيت حاييم، ومنه اصبح هذا الحيز هو بؤرة الحدث، يقول أرسلان :نادتني زليخة من وراء ظهري فالتفت فقالت بتوتر ..: " إنهم يحاصرون دار حاييم " [1] ، ويضيف: "..رأيت سدا من المتجمهرين الهائجين ضرب حول باب دار حاييم، فسحبت من خلف ظهري مسدسا من نوع بيريطا، ...وبظهور زليخة مشهرة مسدسا هي الأخرى ترجع الهياج حتى استحال همهمات مذبوحة، فصمتا، حين واجهت أولئك الثلاثة الذين التفوا إلي، فنظرت بحدة إلى الزعيم، صاحب البيرية الباسكي والبلومازسييه، وكان بيده ساطور جزارة، وهو يقف قريبا من الباب بين الاثنين الأصغر منه سنا وهما يحملان قضيبين حديديين احدهما نزاع مسامير". [2]

عبر الروائي بهذه المقاطع السردية عن العنصرية واللاإنسانية التي تصل بالفرد إلى الحاق الأذى بأخيه الإنسان وقتله دون شفقة، ولا حتى اعتبار لإنسانيته وهذا التمييز العنصري ينم عن جهل الإنسان، فهؤلاء حاول إيذاء حاييم وقتله بأبشع الطرق واخطر الوسائل، لا شيء سوى لأنه يهودي يحمل الجنسية الفرنسية، وقد حاول البطل أرسلان حمايته وإنقاذه بمساعدة زليخة له، وهي إشارة إلى أن هذا التعصب يأتي نتيجة غياب الوعي والجهل، ولا يصدر من شخص مثقف متشبع بالإنسانية، كما رسم لنا الراوي كذلك مرافقة المرأة للرجل دائما في

[1] – الرواية، ص 223.
[2] – الرواية، ص 244.

الحرب والسلم ونصرتها للقضايا العادلة وهو ما مثلته شخصية زليخة، كذلك يسعى الكاتب بهذا الحدث إلى ترسيخ خطاب التعايش الذي أسس له من خلال شخصية حاييم.

بالإضافة إلى هذا أطلعنا الروائي أيضا على الحقد الدفين تجاه الفئة التي ينتمي إليها حاييم، والعنصرية والكراهية المتجذرة في العقول، عقول من يتهكمون على الآخر بسبب اختلافه الديني والعرقي، وقد مثل الكاتب ذلك بشخصية (المهدي بوشجرة) وبخصوصه، يقول: "فنقل الزعيم، بحركة مرتبكة، الساطور إلى يده اليسرى، وهو يدير عينيه كسارق فوجئ، أجده برغم السنين، لا يزال يحتفظ بخيوط من تقاسيمه منذ مدرسة جول فيري، وعليه وجهت المسدس إلى صدره،.. صرخت فيعه، "سي المهدي بوشجرة ! تذكرني؟". [1]

ينقل لنا الراوي صورة هذه الشخصية، التي تمثل عينة لعنصري خطير تبدو متجذرة فيه الكراهية والحقد الدفين، انطلاقا من سيرته وسمعته السيئة، ويواصل الراوي سرد الأحداث، إذ أمر بأن يقيد هؤلاء اللصوص، وبعدها دخل بمعية زليخة إلى بيت حاييم واطمأن عليه، بينما أصوات العنصريين ما تزال تطالب برحيله، ونعته باليهودي، يقول السارد: "..بينما انبعثت من بين المتجمهرين أصوات: "هذا اليهودي كان مثله مثل الأقدام السوداء يحمل الجنسية الفرنسية"

"لماذا لا يرحل مثلهم"!

"ولكنه لم يؤذ أحدا". [2]

ينقل لنا الراوي أراء المتجمهرين، فمنهم من يطالب بترحيل حاييم، ومنهم من يذكره بدوره في الثورة من خلال الأدوية، ونجد الراوي يقول لهم مدافعا عنه: "هل فيكم واحد مثل السيد حاييم خاطر بحياته ورزقه من أجل أن يصبح الحلم بالحرية حقيقة كما ترونها اليوم؟" [3] ، يقدم الراوي للمتلقي صورة عن الدور الفعال الذي قام الآخر المتمثل في فئة يهود الجزائر، وشحن جملة من الدلالة سربها عن طريق حاييم، هذا الذي حارب من أجل تحقيق الحرية بطريقة خاصة جدا (تقديم الأدوية وإرسالها إلى الجبل)، والذي صار منبوذا اجتماعيا بسبب جنسيته وديانته، والسعي إلى محاربته بعد الاستقلال، سببه مخلفات السياسة الفرنسية المبنية على التفرقة والميز العنصري.

كما يسرب لنا الراوي أخلاق حاييم وطيبته وسماحته، بحيث أمر بإطلاق سراح من حاولوا قتله، إذ قال أر سلان: "أطلق سراحهم"، وهي عبارة تدل على التسامح الروحي الذي يتمتع به حاييم، وتشبعه الإنساني.

[1]- الرواية، ص 224-225.

[2]- الرواية، ص 225.

[3]- الرواية، ص 226.

قادنا الروائي عبر المكان (دار حاييم) إلى المشاركة في الأحداث والتعاطف مع حاييم وكأن الأمر حقيقة، وذلك من خلال الوصف الدقيق، والاعتماد على الرؤية المشهدية، واللغة الإيحائية لكل هذه العناصر، وحسن تفعيل عنصر المكان كآلية لنقل الرؤى وصياغة الأحداث، فحقق هذا النص جمالية ورمزية أثرت في هذا الخطاب الروائي، وزادت من فاعلية الطرح الرؤيوي للمؤلف.

يبدو أن الروائي اهتم بشخصية حاييم التي ابتدعها، ليفصح بها ومن خلالها خطابا صامتا، منفتح على قراءات عديدة، يمكن المتلقي من الوقوف على مواطن الجمالية والرمزية وصياغة نص آخر مواز لهذا النص.

وكما أسلفنا الذكر، أن الروائي انطلق من مرجعيات عدة، خاصة المرجعية التاريخية، فقد أبدع في صياغة الأحداث الروائية بشكل يحاكي وقائع تاريخية حقيقية، والأكثر من ذلك كيفية توظيفه للمكان كعنصر أساسي في الرواية، فجاء الفضاء المكاني على تنوعه، له علاقة بأحداث تاريخية، أي أنه على اشتغاله بالمكان في السرد، حال تلمس الأمكنة الأكثر حضورا تاريخيا، والتي شهدت وقائع حساسة على جميع الأصعدة، ثم صاغها في قوالب لغوية تعبر عن بصمته الخاصة، وتحمل رؤاه المختلفة، فتجاوز بخياله ولغته الشعرية، البعد الفزيائي للمكان إلى بعده الرمزي، فجاء انجازه السردي طافح بالدلالات الشعرية والفنية.

ولهذا، ونحن نقرأ الرواية، سيوقفنا المكان في جل صفحاتها، فزاد ذلك تكثيفا للمعنى وشغفا لمواصلة القراءة والتفكيك.

يصور لنا الروائي من خلال المكان، الواقع السياسي والاجتماعي زمن الاستعمار، كما يرصد لنا أيضا سياسة التحكيم في الجزائر بعد الاستقلال وما عرفته من هيمنة واضطراب في كيفية تسيير شؤون البلاد، واختلاف في الآراء، ذلك لأن فترة ما بعد الاستعمار صعبة جدا، بسبب مخلفات الحرب والشتات الذي تسببت فيه، واختلاف في الذهنيات، وقد نقل لنا الراوي تلك الأوضاع، حين توليه مسؤولية البلدية بأن صار رئيسا لها، وصدامه مع مسؤولي الحزب السياسي العائد من وراء الحدود، كما قال: "وفي الثاني من شهر مايو كان علي ان اقدم، أمام هيئة العمالة التي تراسها بدل عاملها مسؤول سياسي عائد من وراء الحدود الغربية غداة إعلان الاستقلال". [1]

من هذا المقطع يبدو وان هناك نوعا من الهيمنة على السلطة من أشخاص لم يشاركوا في الثورة، يحاولون فرض أنظمة عكسية لما أراده الراوي، وهو احد المناضلين بحيث تمكن من سد فراغ كبير، على جميع الأصعدة، رفقة حاييم ما يدل على انه على دراية ومسؤولية كبيرة بشؤون البلاد بمؤسساتها وكذلك يحاول بناء مجتمع وفق

[1]- الرواية، ص 286.

تركيبة جديدة تتعايش بوعي وسلام، فالروائي ينقل للمتلقي حقائق أخرى عن التاريخ العام ويحاول قراءته بمنظور جديد، لتعرية بعض الحقائق والدلائل وكسر صور التفكير النمطي، فبالاستناد على التاريخ دائما يسعى الروائي إلى التأكيد على انه الثورة قامت لمجابهة الظلم والقضاء على كل أشكال العنصرية والعداء، فلم تكن تورة دينية في الأصل، وان كل الأطياف الاجتماعية شاركت في الثورة، ولم يقتصر الأمر على الجزائريين المسلمين فحسب، والدليل على ما يذهب إليه الكاتب مثله له بشخص حاييم هذا الذي لم يكن اختلاف عقيدته بسبب تفرقة اجتماعية، وهذا ما ترجمته علاقة الصداقة الوطيدة بينهما، وكذا وطنية حاييم فقد رافقه في كل ما يتعلق بالوطن منها إعانته كذلك على تسيير شؤون البلدية والملفات المختلفة: "فقد قضيت عطلتي الأسبوعية نفسها في مكتبي بالبلدية، عاكفا أنا وحاييم على ملفات الأملاك الشاغرة، للتحقق من أن أصحابها من الأقدام السوداء والأوروبيين قد غادروا نهائيا، ولرصد أسماء الأشخاص الذين استولوا على بعض تلك الأملاك، وتفقد حال المزارع بمعداتها وأنعامها ومخازنها التي خلفها الكولون...".[1]

يريد الراوي في هذا المقطع السردي أن يطلع المتلقي على مهمة رئيس البلدية آنذاك، ويضعه في قلب الحدث، بحيث لم يكن بالأمر الهين، تسيير الأوضاع ووضع أنظمة تتماشى ومتطلبات الجزائريين، وتحريرهم من كل أشكال التخلف، ومخلفات الاستعمار، قصد بناء مجتمع مستقل بكل المقاييس، وهو المر الذي أدى بمسؤول البلدية (الراوي) إلى مواجهة مسؤول الحزب السياسي الذي منحته جبهة التحرير الوطني لكي يفرض هيمنته على الحكم، يقول الراوي في هذا المقطع السردي: "كيف يدري من لم يخض الحرب هنا في الداخل ومن لا يملك كفاءة ولا معرفة لمواجهة ما ترتب عن مغادرة الأوربيين، ليس في المزارع وحدها ولكن في القطاعات كلها!". [2]

يجسد الراوي (أرسلان) صورة المسؤول المثقف الواعي بحال البلاد والعباد، لأنه كان عنصرا في القضية وعاش معاناة العنصرية، كما يمثل بهذا الخطاب صورة المسؤول الذي لم يشارك في أمور الوطن ومحنه، وما يهمه فقط صياغة الحكام وفق ما يناسب أغراضه ومطامعه السياسية.

وكأن بالروائي يؤكد على السيطرة التي فرضها حزب جبهة التحرير سياسيا، ومحاولة صياغة الأحكام والأنظمة وفق ما يناسب مشاريعه، وكذلك تولي مسؤولية اختيار أعضائه لخدمته وخدمة مصالحه، وهذا كله دليل على سوء توظيف الحكم بعد الاستقلال، وهو ما تمثل في شخص مسؤول الحزب، من سيطرة وتحذير وتهديد كما

[1]- الرواية، ص 285.
[2]- الرواية، ص 287.

أورده الراوي، وكذا فرض الهيمنة على التاريخ كله "عبثية أو كوميديا؟ لا يهم، نحن الذين نكتب تاريخ هذا البلد، ونحن الذين نقرر مستقبله كما نقرر رفع هذه الجلسة!". [1]

ويتضح من هذا المقطع السردي، مدى صور الجهوية والانغلاق في كيفية تسيير الشؤون السياسية والاجتماعية وغيرها، وإقصاء تام لأطياف اجتماعية ضحت بدمها من أجل الوطن.

يقدم الروائي نقدا تاما لمظاهر الاحتكار والتلاعب بالتاريخ، وضرورة التعايش الاجتماعي السلمي والحفاظ على القيم التاريخية والإنسانية والتحرر من السيطرة، "قد البلد ضريبة دم ليتحرر من السيطرة، فكيف يأتي الآن من يريد أن يبسط تسلطه!". [2]

وهي دعوى من أرسلان (الراوي) إلى التحرر والانفتاح والتعايش الاجتماعي بين الجزائريين كلهم، وبسط الأمن والسلام، لأن البلد قدم النفس والنفيس لتحقيق الحرية، وبالتالي وجب استنكار كل أساليب السيطرة والاضطهاد، هكذا إذن ومن خلال علاقة شعرية هذا الحيز المكاني (البلدية) بالأحداث، قدم لنا الراوي أساليب وطرق التسيير للشؤون المختلفة للبلاد بعد الاستقلال، فالروائي استغل هذا الحيز كإطار لمجريات الأحداث التي كثفت لنا مرحلة هامة وحساسة من تاريخ الجزائر، وعليه جاء هذا المكان كزاوية نظر للروائي، وقالب يشكل عبره الأحداث السردية التي تحاكي وقائع حقيقية بقراءة حداثية، وهو ما يفتح المجال لعتبات القراءة والتأويل، ومنه هنا تحققت الشعرية.

يرسو بنا الروائي على مرفآ آخر للجمالية، دائما، من حسين تفعيل المكان في علاقة شعرية بالأحداث، التي يقدمها لقارئه في قالب فني متفرد، بلغة تتمادى في الرمزية والإيحاء.

وعن طرق الحضور المهيمن لحاييم، هذه الشخصية التي استهل بها السرد وختمه به، مسربا عبرها عديد الخطابات، فها هو حاييم هذا الصديق الرفيق الوطني الذي شارك في الثورة بطريقته الخاصة، الذي عاش منبذا بسبب العقيدة والجنسية، يقاوم حتى آخر حياته ومرضه، ثم توفاه القدر بالمستشفى، وبه أوصى بأملاكه ومفتاح الدار والصيدلية لأرسلان، ترك ذلك في وصية.

يمكن القول أن الراوي (الكاتب) حافظ على حاييم سرديا وخطابيا، بحيث قدم نهايته بما يخدم خطابه الداعي إلى السلم والسلام والانفتاح والتعايش في ظل الاختلاف فلماذا نحارب الآخر بسبب تبيان العقيدة أو الجنسية، طالما هو إنسان؟! خاصة إذا كان يجمعنا وطن واحد، بل لا بد من الحوار والتسامح الديني وترك هؤلاء إلى أن يتوفاهم قدرهم، وهو ما حدث مع حاييم الذي عُومل جسده كما تقتضيه ديانته، يقول أرسلان: "لم أتردد

[1]- الرواية، ص 290.
[2]- الرواية، ص 288.

لحظة، لأن ذلك كان نابعا من قناعتي، لما استمحت مسؤول المكتب في أن أعرف منه إذا كان حاييم قد رحل مطمئنا على أن جسده سيعامل كما تقتضيه ديانته، لأنه كان مؤمنا". [1]

فطمأنه المسؤول بأنهم قد أحضروا من طائفته من وثق عليه وغسله وكفنه وقرأ عليه، يجسد لنا الراوي بهذا القول نهاية حاييم بالمستشفى مصابا، وهي نهاية ووفاة مثله مثل أي إنسان ولا فرق على حساب الدين، كما صور لنا السارد كذلك الجانب الإنساني في تأثره هو وزوجته زليخة بموت حاييم، بالإضافة إلى احترامه لروحه إذ اطمأن على أن يعامل جسده بما تقتضيه ديانته.

يسعى الروائي بهذا التصوير دائما إلى التأكيد على ضرورة سماحة الأديان ومراعاة القيم الإنسانية، ونبذ العنصرية واللاتسامح.

كما يحاول الكاتب دائما أن يقنع قارئه بإمكانية التعايش مع الآخر، وهو ما مثل له في أكثر من موضع، بالإضافة إلى الصورة الحسنة والأخلاق الطيبة التي طبعت شخصية حاييم الإنسان، ووفائه لوطنه، ولصديقه أرسلان الذي أوصى له بما كان يملك، كقيمة مادية ومعنوية، وهي دليل راسخ ومستمر، بعده يقول الراوي: "..ومن الدرج أخرج مفتاحين بحلقين صغيرين علقا بهما، كتب على إحداهما مفتاح الدار، أتذكر برودته في يدي خريف العام الماضي، وعلى الآخر مفتاح الصيدلية، ثم وضع كل شيء في ظرف كبير سلمني إياه، قائلا إن ذلك ما أوصى به السيد حاييم بنميمون". [2]

هكذا فقد قدم حاييم طيلة حياته لوطنه كل ما يحتاجه من دعم، وتصرف تجاهه بكل وطنية، وكان خير رفيق لأرسلان، ثم نجده يترك كل أملاكه لهذا الصديق الذي حالو حمايته بشتى الطرق، وقد تمكن من ذلك، فأرسلان (الراوي) نقل كل الوقائع المتعلقة بحاييم، وصاغ الأحداث بلغة إيحائية، بحيث جعل من المتلقي يشارك في هذه الأحداث الدرامية، ويتعاطف مع حاييم الإنسان بغض النظر عن الاختلاف العرقي والديني.

ويواصل الراوي سرد الأحداث بتعابير غاية فقي الرمزية، تضع القارئ أمام تصديقها، وذلك لحسن التصوير وبراعة التخييل التي يتميز بها الروائي، إذ جعل من أحداث الرواية تمتاز بواقعيتها، خاصة ما يتعلق بشخصية حاييم التي عرف كيف يصورها في كل مراحلها ومواقفها وأماكن تواجدها، إذ جعل من المستشفى الذي به توفي حاييم، مهدا لهذه الوقائع السردية المثيرة والدرامية، وخاصة تلك الوصية التي زادت من قوة الحدث وزادت رمزيته.

---

[1]- الرواية، ص 326.

[2] – الرواية، ص 326.

ويقول حاييم في هذه الوصية التي تركها لأرسلان: "صديقي العزيز أرسلان، اعذرني إن لم أخبرك قبل هذا الوقت بأني سأرحل قريبا عن هذه الدنيا وفي قلبي حب عظيم لك ولأهلنا وبلدنا...". [1]

ونحن نقرأ هذه الوصية، نلاحظ سماحة حاييم بحيث لم يتحدث على ما سببه له بعض العنصريين من معاناة وظلم، وإنما يفصح عن حبه لصديقه أرسلان، وحب كذلك الوطن، وتعلقه بأرضه، إذ يضيف قائلا: "..أحببت، وأنا أثق في وفائك، أنت وزليخة، أن تسهر على أن ينقل جثماني إلى مدينتنا، وعلى أن يحفر لي في مقرتها قرب والدي، كم أحببت سعيدة هذه! ويا لها من مدينة عجيبة على قدر كبير من الأسرار الصغيرة! وداعا، حاييم..".[2]

عبر الروائي بهذه المقتطفات السردية من وصية حاييم على مدى وطنية هذه الشخصية، بحيث أن هذه الوصية لا تختلف على ما يوصي به أي إنسان، جزائري خاصة، بأن يدفن بجوار والديه كما هو متعارف عليه، كذلك بدا حاييم متعلقا بأرضه، ومرابع طفولته بمدينة سعيدة، وهذا دليل على الوفاء للوطن.

فالروائي يؤكد من خلال هذه الشخصية المتخيلة، الصور الإيجابية للآخر، بصفة عامة، وهو ما أسقطه تاريخيا على فئة يهود الجزائر، الذين يشكلون جزءا لا يتجزأ من الهوية الجزائرية، بحيث ساهموا بدورهم في كتابة التاريخ فعلا لا قولا، والدليل مجسد في الشخصية حاييم، الذي مثل نموذج الوطني الوفي، بحيث أشركه الروائي في كل ما يتعلق بالتاريخ، فشارك في الثورة (المساهمة بالدواء)، كما عاش فرحة الاستقلال رفقة أرسلان، وكان مستشارا ومساعدا له في ما تعلق بتسيير شؤون البلدية بعد الاستقلال.

وقد جاء توظيف هذا الفضاء (المستشفى) وتسريد الأحداث على هذه الشاكلة، مرصد آخر لعلاقة الشعرية المكانية بالأحداث، وذلك وقفنا عليه من تجلٍ للرمزية والمعاني المكثفة.

يؤكد الروائي في كل مرة على مدى أهمية المكان في السرد، بحيث وظفه في هذه الرواية بطريقة فنية، فالمكان هو الإطار الذي يحوينا، ويحيط بنا جغرافيا وسرديا، إذ هناك علاقة وتواصل دائم بيننا وبين الأمكنة، و "لقد أشارت سيزا قاسم إلى الشكل القوقعي للمكان في إحاطته بالفرد في العالم إحاطة طبقات البصلة بنواتها التي يمثلها الفرد". [3]

---

[1]- الرواية، ص 325.

[2]- الرواية، ص 325.

[3]- نقلا عن الأخضر بركة، الريف في الشعر العربي الحديث، قراءة في شعرية المكان، دار الغرب للنشر والتوزيع، د-ط، 2002، ص 16.

ويمكن إسقاط ذلك على فضاءات رواية "أنا وحاييم"، والتي كانت مسرحا لتنقل الشخصيات والقيام بالأفعال السردية، كما كانت مرتكزا لمجريات الأحداث وحيثيات الوقائع التي أسهمت في تشكيل هذا العالم السردي المتكامل.

وبتتبع العلاقة بين هذه الأمكنة وترابطها شعريا بين الأحداث، فإن القارئ تستوقفه العديد من الشفرات والتيمات السردية، ويسعى بذلك إلى تفكيكها وقراءة رمزيتها ودلالاتها.

والملاحظ أن الروائي برع في تجسيد مختلف الأحداث استنادا على أمكنة تحمل العديد من الرمزية، وليتتبع المتلقي مثلا الأحداث المتعلقة بشخصية حاييم، وكذا الفضاءات التي شغلتها هذه الشخصية، يلحظ أن الروائي وظفها كفاعل مهم في تسريب خطابه، وعنصر أساسي له.

فقد صور حياة حاييم منذ الطفولة، حتى مثواه الأخير في مقبرة اليهود، مكتفا بذلك كثيرا من الخطابات، أهمها التعايش السلمي واحترام مبدأ الاختلاف، واحترام الآخر كذلك في حياته وبعد مماته، من منطلق أنه إنسان، فكيف إذا كان الجامع المشترك هو الوطن وكذا العادات والتقاليد، وهو ما يطبع شخص حاييم، الذي اضطهد بسبب العنصرية والجهل، ولكن وعي صديقه أرسلان وانفتاحه على الآخر ووطنية حاييم أيضا، ساهم في حمايته إلى أن توفاه المرض، وانتقل إلى عالم صمته النهائي، القبر، وهو ما أبدع الروائي في تصويره لغويا، فأوهم قارئه بحقيقة الحدث وواقعيته، يقول السارد (الراوي): "توقفت عند مدخل -جبانة اليهود- هناك تذكرت أن ثلاثة أشهر كانت قد مرت على وصول حاييم الأخير إلى عالم صمته النهائي، وكأنها ثلاثة أيام أو ثلاث ساعات". [1]

يبدوا الروائي متأثرا وهو يزور المقبرة التي بها حاييم إلى الأبد، بعد ثلاثة أشهر من وفاته، وكأنها ثلاثة أيام أو ثلاث ساعات، كما صرح أرسلان، وهذا يدل على مكانة هذا الشخص عند الراوي، الذي احترم أمنيته في أن يدفن بهذه المقبرة ووفائه له، وهو بهذا كأنه يقدم دعوة ضمنية إلى الاقتداء به ومعاملة الآخرين في إطار إنساني بغض النظر على الاختلافات الدينية والعرقية، وهذا طبعا ما استنبطه الروائي في خطابه وتوجهه الفكري، الذي نلتمس دلالته في هذا المنحز السردي.

يواصل الراوي السرد، بحديثه عن هذا المكان، المقبرة، وما يحمله من دلالة إيحائية وما تربطه من علاقة شعرية بالأحداث التي تتفاعل جماليا ودلاليا مع هذا الحيز المكاني، بحيث وظفه الكاتب كآلية لإيصال رؤية سردية، ويمكن اعتباره لغة تميز خطاب الروائي وتدعمه بطريقة معينة، وهذا ما يعود إلى اللغة وملكة الخيال، وهذا ما يجعل توظيف نفس الفضاءات تتمايز من مبدع لآخر.

[1]- الرواية، ص 329.

حاول الروائي إذن يكثف العديد من المعاني وهو يوظف هذا الحيز المكاني (المقبرة) وأن يشحنه بحقل سردي باذخ الدلالة، صاغ ذلك بلغة شاعرة، وهو ما أسر به قارئه الذي يتفاعل شعوريا معه وينتقل معه كذلك خطوة خطوة، عند قبر حاييم ويسترجع معه الذكريات..، يقول الراوي: "مررت وعند القبر، أخرجت يدي من جيبي الكباردين فخللت إلى الخلف شعري المبلل برذاذ المطر، وقد ثبتت، من بين العشرات التي تتالت عابرة كشريط في ذهني، صورة واحدة لحظة قرأت اسم حاييم بنميمون تحت النجمة السداسية محفورا بالحروف العبرية: إنها وجهه الهادئ الباسم إذ قال لي: "نحن جميعا أبناء أبينا آدم"، تلك الجملة التي كتبها لي على كراسي، في عامنا الأخير، قبل انطفاء الأنوار في مرقد داخلية ثانوية معسكر، إثر نقاش بيننا حول السامية والحامية، وقال: إن ذلك أجمل ما يمكن أن ينقش على حجرة لحد...، أعددت لحاييم ذلك عند أشهر صائغ لرخام القبور هنا في مدينة وهران، وقد نقلت الرخام وثبتت على قبره بعد دفنه بشهر". [1]

يكثف الراوي بهذا القول الدلالات التي تميز هذا المختلف عنه، من حيث العقيدة أولا، وهو ما تترجمه طقوس اليهود من حيث الرموز، مثل النجمة السداسية وغيرها من الرموز التي تطبع مقابرهم، كما يلمح السارد أيضا إلى احترام ثقافة ولغة الآخر وهي مثل اللغة وغيرها، بحيث كتب اسم حاييم بالحروف العبرية، وكأن الروائي يؤكد على التفاعل وفتح باب الحوار والتبادل الثقافي مع الآخر، مع احترام خصوصياته.

يؤكد كذلك الكاتب على ضرورة التعامل بكل إنسانية مع هذا المختلف عنا، من منطلق أننا جميعا أبناء آدم، وزيارة قبر حاييم مظهر آخر من مظاهر التسامح الديني والتعايش السلمي الإنساني، وهو ما بطن به الروائي خطابه، بحيث أن اختلاف الدين لا يعني أنه بالضرورة أنه مصدر الكراهية والعدائية، بل لا بد من تجاوز ذلك بكل وعي، وتحقيق نسق حواري حضاري تمحي فيه كل الفوارق.

بالإضافة إلى ذلك، فقد أثبت الكاتب مدى وعي وإنسانية هذه الفئة، فئة اليهود، والتي اختزلها المبدع في شخص حاييم، كصورة إيجابية عن الآخر، بحيث حاول في هذا العمل الإبداعي، كسر الصور النمطية عن الآخر والمقولات الجاهزة عنه، ونحن نستشف فاعلية خطاب الروائي من خلال ما شحن به شخصية حاييم من معاني رمزية، فجعله يقرر نحن أبناء آدم، وأن ينقش هذا على حجرة لحد، ونحن ندرك ما يحمله الفعل يُنقش من بلاغة وجمالية فنية ورسوخ، كما أن تحقيق أرسلان لهذه الأمنية، بحيث أعد له (لحاييم) وكتبت هذه الجملة على قبره، دليل على الخطاب الإنساني الذي يدعو له الروائي، في ظل التسامح الديني.

[1]- الرواية، ص 330.

ويضيف الراوي في هذا السياق دائما، بحيث تتجلى علاقة شعرية المكان بالحدث الأكثر، فنجده يصور لنا نفسه على واقفا على قبر حاييم، يقول: "ليطب مقامك في مثواك الأخير في بيت عِلمِين هذا ."!

وهنا يدعو له بكل إنسانية، يخاطبه بما تتسم به ثقافتهم ولغتهم متحدثا عن طقوسهم الدينية، أو بالأحرى معتقداتهم، بداء من اسم المقبرة عندهم، إلى ما عبر له حاييم ذات يوم، بخصوص ما يتعلق باعتقادهم ومعتقداتهم حول روح الإنسان بعد موته.

والكاتب يعبر هنا عن الفوارق الدينية بين الإسلام واليهودية بشكل موضوعي ضمني دون أي تطرفٍ، إذ أن هذا الاختلاف لا يعد من الدلالات الرمزية، مستغلا هذا الحيز (المقبرة) كإطار وقالب يصب فيه توجهه الخطابي، بحيث لم يشتغل هذا المكان الروائي كحيز جغرافي فحسب، بل عبر عن أبعاد دلالية وأنساق فكرية، تحمل رمزية أكثر، فقد وظفه الروائي ليدعم به أفكاره وأغراضه السردية التي تؤسس لهذا الخطاب الإنساني الشامل.

ويقول الروائي وقد أثار سؤالا: "أليست المقابر، كل المقابر، هي ممالك العدم؟ ."

فالروائي هنا لا يريد جوابا بهذا السؤال، وإنما يريد التأكيد على أنها فعلا ممالك عدم، ويؤكد بطريقة مضمرة أهمية التعايش الديني والتسامح الإنساني، ونبذ الكراهية، فهو يؤكد أن كل المقابر ممالك عدم، سواء كانت مقابر يهودٍ أو مسلمين، وعليه لا بد من التعامل بكل إنسانية بغض النظر عن الاختلافات الدينية والعرقية.

صورة أخرى كذلك يوظفها الروائي، تتجلى عبرها شعرية ورمزية هذا المكان الروائي (المقبرة)، بما يسرده الكاتب من أحداث وما يسرّ به من أفكار وآراء مختلفة، مستغلا هذا الحيز المكاني كآلية خطابية تدعم مشروعه الخطابي عن التعايش السلمي والتبادل الثقافي، وهذا ما يسهم في بناء مجتمع حضاري يواكب المتغيرات الراهنة وما يعرفه العالم اليوم من تفاعل وحركية على مستوى الإنتاج الفكري.

تتجلى هذه الصورة إذن، في هذا المقطع السردي الذي يقول فيه الراوي: "فكرتُ ماذا كان يجب أن أقول لمسلم يحرس مقبرة يهود؟..." [1] ، يتضمن هذا القول الذي ختم به الروائي عالمه السردي نوعا من المفارقة التي أثارها هذا التساؤل، الذي يطرحه في شكل مونولوج، ويبقى للمتلقي التأويل وقراءة هذه المفارقة التي تحمل الكثير من الرمزية.

وتتبدى الشعرية هنا، في جعل هذا المكان الروائي، صورة تؤكد على التعايش السلمي وضرورة حماية الآخر من منطلق الإنسانية، بحيث أن الراوي أصدر قانونا لحماية فئة اليهود لما كان مفوضا للبلدية، فعين أحد المسلمين لتولي ذلك فكان حارسا لمقبرة اليهود، وهنا يجسد دور الحاكم في إمكانية تحقيق الأخوة والتعايش بأسلوب

[1]- الرواية، ص 333.

حضاري وبكل وعي بمدى أهمية التبادل والحوار الفكر والثقافي مع الآخر، ونبذ الانغلاق والتقوقع بحجة الاختلاف العقائدي والعرقي.

يدعو الروائي إذن إلى أهمية التعايش وتقبل الاختلاف، وضرورة بناء مجتمع ثقافي حضاري تطبعه الإنسانية في أسمى معانيها، وهو ما حاول تجسيده للمتلقي وإسقاطه على علاقته بحاييم، هذا الأخير الذي يمثل المختلف جنسيا ودينيا، ومع ذلك تمكن المبدع من تسريب خطابه وتوجهه الفكري، عبر أوثق الروابط الإنسانية والاجتماعية وأكثرها تغييبا اليوم، وهي رابطة الصداقة، التي جمعته والصديق حاييم النموذج الإيجابي عن الآخر.

وفي خضم هذا السرد الطافح بالرمزية والدلالات المكثفة، جعل الروائي من التاريخ ووقائعه، إطارا لأحداث روايته، مسائلا هذا التاريخ بقراءة حداثية، تكشف عن تصحيح بعض المغالطات، وتجاوز بعض الأفكار والقناعات النمطية، بوعي وأساليب بناءة.

كل هذا إذن، جعل القارئ أمام نص روائي حداثي بكل المقاييس، نص مفتوح على عتبات قرائية عديدة، يحتمل أكثر من تأويل، صاغه الحبيب السائح بلغة شعرية، زادته جمالية، وطرح جريء، بأسلوب فني يستفز المتلقي.

خاتمة:

نصل في الأخير إلى الخاتمة التي نرصد فيها ما توصلنا إليه في هذه الدراسة، التي تناولنا فيها شعرية المكان في رواية (أنا وحاييم) للحبيب السائح، فبعد الوقوف على ما اشتملت عليه هذه الرواية من قيم جمالية وفنية، ومحاولة رصد تجليات الشعرية المكانية فيها، نسعى إلى توضيح ذلك في النقاط الآتية:

* رواية أنا وحاييم هي رواية مفتوحة على العديد من الأنواع، وهو ما يثير فضول القارئ ويحقق متعة القراءة والتأويل.

* تجسدت جمالية الأماكن في هذه الرواية بفضل ما حققته من شعرية، من خلال الأماكن المغلقة والأماكن المفتوحة، هذه الثنائية التي أسهمت في إضفاء لمسة جمالية، وزادت في تماسك البناء الفني العام للسرد، كما كثفت الأحداث.

* يعد المكان عنصرا أساسيا في المتن السردي، ويمثل أحد العناصر الفاعلة والفعالة في بناء الأحداث وليس مجرد إطار لها، وهذا ما أحسن الروائي تجسيده.

* تمكن الروائي من توظيفه لأماكن متنوعة ومتعددة، من تصوير الواقع الجزائري في مراحل تاريخية حساسة، منطلقا في ذلك من مراحل حياته ومرابع طفولته مع حاييم، بما يوهم القارئ أنه أمام نص سير ذاتي، وهو ما زاد من شعرية أمكنته الروائية.

* عبر الروائي في هذا النص عن مختلف أبعاد المكان، وما يخلقه من قيم أخلاقية واجتماعية وغيرها، كما جاء متخيل الفضاء في هذا النص يعبر عن الخلفيات المتعددة للروائي وتوجهاته الفكرية.

* حاول الكاتب من خلال علاقة المكان بالعناصر الفنية الأخرى للسرد، وما يشتمل عليه من شعرية تجسد القيم الإنسانية والاجتماعية، ومقاربة الواقع الجزائري، وتسليط الضوء على صور القهر والحرمان التي عاشها الجزائريون زمن الاستعمار تحديدا فترة الثورة، ومحاكاة الواقع التاريخي، كما تطرق كذلك إلى فترة الاستغلال وما عرفته من هيمنة للسلطة، وجهل وسلوكات عدوانية تجاه الآخر، الذي مثل له شخص حاييم، وما تعرض له من عنف وعنصرية رغم موقفه ودوره الإيجابي.

* وظف الروائي عنصر المكان كآلية في الخطاب المضاد.

* استطاع الكاتب الكاتب بتفعيل المكان دائما، وعلاقته الشعرية بالحدث وكذلك الإلمام بعناصر السرد الأخرى، التطرق إلى صورة الآخر، عن طريق قراءة ومساءلة التاريخ، جاعلا من شخصية حاييم وهو الذي يمثل فئة يهود الجزائر دليلا على مصداقية خطابه الحضاري الداعي بطريقة مضمرة إلى التسامح الديني، والتعايش بسلام في ظل نقاش الأفكار والحوار الثقافي.

* نلاحظ كذلك أن الحبيب السائح كتب لنا نصا إبداعيا إنسانيا، فأحسن تشغيل المكان وتأثيث روايته، جاء ذلك بلغة شاعرية وصْفية، مما جعل فضاءاته المتخيلة تحمل بصمة خاصة به، زادت النص دلالات أكثر شعرية ورمزية.

بعد هذه النتائج نصل إلى نهاية هذا البحث، الذي نأمل أن نكون قد وفقنا ولو بالجزء اليسير في إضاءة هذا الجانب من دراستنا للمدونة، وأن يستفيد المتلقي والدارس من هذا البحث، إذ لا نزعم أننا أعطيناه حقه من الدراسة والبحث، كما نتمنى كذلك أن يكون إضافة لما يتعلق بدراسة الأدب الجزائري، الروائي منه خاصة، لأن الرواية الجزائرية اليوم صارت تنافس مثيلاتها في العالم فنيا وموضوعاتيا، كما أن المبدع الروائي الجزائري يكتب بلغة تشبهه ويُشبهها، وهو ما يضفي مسحة جمالية على منجزاته، وهذا ما تجلى في رواية "أنا وحاييم" من الشعرية المكانية، وما بثه الروائي عبر توظيف المكان من جماليات ومعانٍ رمزية.

ونأمل أن تتكاثف الدراسات بخصوص الأدب الجزائري، الرواية خاصة لأنها حقل خصب للبحث والدراسة.

وفي الأخير نسأل الله التوفيق والسداد

قائمة المصادر والمراجع:

*** المصدر:**

- الحبيب السائح، أنا وحاييم، دار ميم للنشر، الجزائر، مسكيلياني للنشر والتوزيع، تونس، ط 1، 2018.

*** المراجع:**

1. إبراهيم صحراوي، تحليل الخطاب الأدبي لرواية المحبين لجرجي زيدان أنموذجا (دراسات تطبيقية)، دار الآفاق، الجزائر، ط 2.
2. أحمد مرشد، البنية والدلالة في روايات إبراهيم نصر الله، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 1، 2005.
3. الأخضر بركة، الريف في الشعر العربي الحديث، قراءة في شعرية المكان، دار الغرب للنشر والتوزيع، د-ط، 2002.
4. الأخضر بن السايح، سطوة المكان وشعرية النص، عالم الكتب الحديث، إربد، ط 1، 2011.
5. الشريف حبيلة، مكونات الخطاب السردي (مفاهيم نظرية)، عالم الكتب الحديثة، الأردن، ط 1، 2011.
6. حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن، الشخصية)، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط 1، 1990.
7. حسن نجمي، شعرية الفضاء (المتخيل والهوية في الرواية العربية)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، المغرب، لبنان، ط1، 2000.
8. حسين خالد حسين، شعرية المكان في الرواية الجديدة، مؤسسة اليمامة، الرياض، ط 1، 2000.
9. حميد لحميداني، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1991.
10. زيد عبد الصمد، المكان في الرواية العربية (الصورة والدلالة)، كلية الآداب، منوبة، ط 1، 2003.
11. شاكر النابلسي، جماليات المكان في الرواية العربية، ط 1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1994.
12. عبد الرحمان منيف، عروة الزمان الباهي، المركز الثقافي، بيروت، ط 2، 1999.
13. غاستون باشلار، جماليات المكان، ترجمة غالب هاسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط2، 1984.

14. قاسم سيزا ، بناء الرواية، دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة، مصر، د ط، 1984.
15. كمال أبو ديب، في الشعرية، مؤسسة الأبحاث العربية، لبنان، ط 1، 1987.
16. محبوبة محمدي محمد أبادي، جماليات المكان في قصص سعيد حورانية، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، د ط، دمشق، 2011.
17. محمد السيد اسماعيل، بناء فضاء المكان في القصة العربية القصيرة، دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة، ط 1، 2002.
18. محمد عزام، فضاء النص الروائي (مقاربة تكوينية بنيوية في أدب نبيل سليمان)، الحور للنشر والتوزيع، اللاذقية، سوريا، ط 1، 1996.
19. مصطفى الكيلاني، الرواية والتأويل (سردية المعنى في الرواية العربية)، الأزمنة للنشر والتوزيع، الأردن، ط 1، 2009.
20. مهدي عبيدي، جماليات المكان في ثلاثية حنامينة (حكاية بحار، الدقل، المرفأ البعيد)، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، ط 1، 2011.
21. وردة معلم، متخيل الفضاء في رواية إبراهيم الكوني، الوسام العربي للنشر والتوزيع، عنابة، الجزائر، ط 1، 2016.
22. ياسين النصير، المكان والرواية، دراسة في فن الرواية العراقية، الموسوعة الصغيرة (57)، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1980.

* مواقع الأنترنت:

موقع ويكيبيديا https://ar.wikipedia.org أطلع عليه يوم 2021/07/04 على الساعة 14:00 زوالا .

الملخص:

تحاول هذه الدراسة الكشف عن شعرية المكان في الرواية الجزائرية المعاصرة، "أنا وحاييم" للروائي الحبيب السائح، ذات البصمة الخاصة على مستوى الطرح وعلى مستوى البناء الفني.

ولأن المكان أحد العناصر الأساسية في بناء الرواية، فقد أبدع الروائي في توظيفه، وعرف كيف ينأى به من شكله المادي إلى شكله الرمزي الخيالي، وقد جاءت هذه الدراسة لترصد المكان في تشكيلاته الجمالية والدلالية المتعددة، وذلك من خلال شعرية الأماكن المغلقة والأماكن المفتوحة، وما تخلقه هذه الثنائية الضدية من جمالية ورمزية، بالإضافة كذلك إلى أبعاد المكان ودلالاته الشعرية، وكذا علاقة شعرية المكان بالعناصر السردية الأخرى (الزمان، الشخصية، الحدث).

Summary :

This study attempts to reveal the poetic place in the contemporary algerian novel, " me and haim ", of the novelist " elhabib sayeh ", with a special imprint at the level of the offering and at the level of technical construction.

And because the place is one of the basic elements in the construction of the novel, the novelist excelled in his use, and he knew how to distance him from his physical form to his imaginary symbolic form, this study came to monitor the place in its various aesthetic and semantic formations, this is done through the lattice of indoor and outdoor spaces, and what this oppositional duality creates in terms of aesthetics and symbolism, in addition to the dimensions of the place and its poetic connotations, as well as the relation of poetic place to other narrative elements (time, character, event).

الفهرس:

الرقم	العنـــــــوان	الصفحة
01	مقدمة	أ
02	الفصل الأول: شعرية المكان في رواية أنا وحاييم للحبيب السايح	04
03	أولا: علاقة الشعرية بالمكان	04
04	1- أنواع شعرية المكان في الرواية	04
05	أ- شعرية المكان المغلق	06
06	1- البيت	10
07	2- الغرفة	12
08	3- المدرسة	15
09	4- المكتبة	16
10	5- الحافلة	17
11	6- بيت الجدة	19
12	7- الجامعة	20
13	8- المقاهي والنوادي والمطاعم	20
14	9- الصيدلية	24
15	10- المقبرة	25
16	ب- شعرية المكان المفتوح	27
17	1- الشوارع والأحياء	28
18	2- المزرعة	36
19	3- الجبل	37
20	4- المدينة	38
21	ثانيا : أبعاد المكان في الرواية ودلالاته الشعرية	41

22	أ- البعد الإيديولوجي	41
23	ب- البعد النفسي	43
24	ج- البعد الديني	46
25	د- البعد الاجتماعي	48
26	هـ- البعد الطبيعي	51
27	الفصل الثاني: علاقة شعرية المكان بالعناصر الأخرى	55
28	1- علاقة شعرية المكان بالزمان	55
29	2 - علاقة شعرية المكان بالشخصية	58
30	3- علاقة شعرية المكان بالحدث	66
31	خاتمة	92
32	قائمة المراجع	93